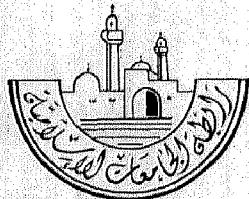
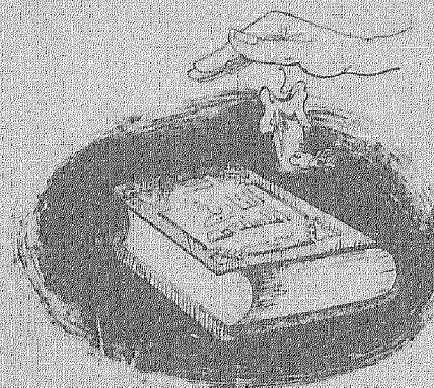


دكتور محمد نابيل مظہر صدیقی

الْجَمَامُ الْمُخْرَصَةُ عَلَى التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ

ترجمة
دكتور سمير عبد الحميد بر القسم



الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
عَلَى النَّارِخِ الْإِسْلَامِيِّ

كتبه بالأردوية
دكتور محمد نايمين مظہر صدیقی
قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الإسلامية
عليگرہ

الْهَمَامُ الْمُخْرَصِيُّ
على النايني الإسلامي

ترجمة
دكتور سعید عبد الحمید بر الهیم



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

م ١٩٨٨ = ١٤٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

منذ بدأ الاستعمار الغربي (ولا أقول الاستعمار) يعرف حقيقة القوة الإسلامية الكامنة ، ويعرف أن الحقيقة الإسلامية لا تقهق بـ المواجهة العسكرية أو السياسية أو الفكرية الواضحة ...

منذ هذا الوقت والحملات المغرضة الخفية والظاهرة ، والصريحة والماكرة تترى على كل ما يتصل بالإسلام ...

- إنهم يهاجمون - بالفکر الخبيث لا بالحجج - الإسلام عقيدة وشريعة .
- وإنهم يهاجمون - بالفکر الماكر - الإسلام حضارةً وتاریخاً .
- وإنهم ليعملون على تشویه كل ما قدمناه للبشرية ، مع أنهم - باعترافهم - عالة علينا ، قد أخذوا مِنَ الأخلاق والقيم والعلوم والفنون ... فلم يعرفوا الفروسية ، ولا الحمامات ، ولا احترام المرأة والشقة بأنها إنسان كالرجل تماماً ، ولا الانضباط ، ولا المدارس والجامعات ... لم يعرفوا كل ذلك وغيره إلا من خلالنا ، وعندما جلسوا تحت أقدامنا يتعلمون في قرطبة وغرناطة وبيجاية والقيروان وصقلية وبغداد ودمشق والقاهرة ... حتى البابا سلفستر الثاني كانت مفخرته الكبرى أنه تلمنذ على المسلمين في قرطبة ، وتعلم لغتهم ودرس علومهم ...

ومع ذلك - وبخـد وغـدر لا مـثـيل لـهـما فـي التـارـيخ - ذهـبـوا يـلـهـمـون كـلـ ما لـدـيـنـا ، وـيـطـورـون عـقـولـهـمـ وـحـيـاتـهـمـ ، وـفـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ يـنـكـرـونـ أـىـ فـضـلـ

لنا ... اللهم إلا عدد قليل منهم ؟ برباع - إلى حد ما - من هذه الآفة التي لا تليق بالحضارة ولا الإنسانية !!

ولم يقف الأمر عند هذا الحد الذي يمثل موقفاً شخصياً يمكن القول فيه بأنه دفاع عن الذات أمام الإسلام - حتى ولو بالافتراء على الإسلام - بل تعدى الأمر ذلك إلى محاولة تشويه الإسلام وحضارته وتاريخه ، ليس أمام الأوربيين هذه المرة ، بل أمام المسلمين أنفسهم ... وهذه أثبتت من الأولى ؛ لأنها محاولة تعكير المنابع الإسلامية ، حتى يضل أصحابها عن طريقها ، وتهادى علاقتهم بها .

وقد ظهرت طبقة من المستشرقين لا عمل لها - على الأقل خلال القرون الثلاثة الأولى لنشأة الظاهرة الاستشرافية - إلا تشويه الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ، والتركيز على الشخصيات الملحدة والمنافق والقلقة والشعوبية في هذا التاريخ ... وفي المقابل محاولة تصخيم خلافات المسلمين مع بعضهم ، حتى لكتابهم كانوا يتظرون منهم أن يكونوا ملائكة ، أو قوماً بلا وجهات نظر وآراء .

وقد أخفوا الجوانب التي تغطي معظم المساحة ، وهي مساحة الإشراق والعظمة في تاريخنا الإسلامي أفراداً وحكومات وطبقات منسجمة متوازنة متكاملة .

ولم يتورعوا عن محاولة النيل من أعظم شخصية عرفها التاريخ (كما يقول منصفوهم وعلى رأسهم برناردشو ومايكل هارت ولوبيون وغيرهم) وهي شخصية الرسول ﷺ ، ثم ذهبوا يلتمسون التغرات - من وجهة نظرهم المريضة - في شخصيات الصحابة والتابعين والدول الإسلامية المتلاحقة .

وقد وضح أن الإنفاق السخى الذي تبذله وزارات المستعمرات وإدارات

الاستخبار على كثير من المستشرين والباحثين ، وعلى بعض الجامعات ، إنما كان أمرا خططأ له ، وداخلا في إطار خطة السيطرة على الشعوب الإسلامية ، وفضحها عن عناصر قوتها وركائز حضارتها ، ومحاولة تمييع رؤيتها لأسسيات وجودها .

وهذا الكتاب الذى تقدمه رابطة الجامعات الإسلامية اليوم للكاتب الهندى المسلم الدكتور محمد ياسين مظھرى (الأستاذ بجامعة علیگرہ الإسلامية) ليس إلا حلقة في سلسلة متابعته للحملات المغرضة على تاریخنا الإسلامي ...

ونحن نتمنى أن يمدد الكتاب المسلمين - ومنهم المؤلف - الطرف إلى محاولات طوائف أخرى غير المستشرين تشویه تاریخنا الإسلامي ، وعلى رأس هؤلاء المشوهين لتاریخنا المتجرئين عليه المفسرين له تفسيرا خاصا طائفية القرامطة التي انبعثت لها رعوس فتنة في عصرنا من جديد ، بعد أن كانت الفتنة نائمة (ولعن الله من أيقظها) . وأبىت هذه الرعوس إلا أن توقظها عن طريق الطعن في الصحابة والهجوم على تاريخ المسلمين ، وادعاء العصمة لغير رسول الله ﷺ وإثارة الفتنة في أمة محمد ﷺ ومن هؤلاء الشيوعيون الذين يوّلون الواقع وفق تفسيرهم اليساري الطبقي المادى . ومع كل ذلك نقول مطمئنين : إن هذه الحملات المغرضة ليست بنت اليوم .. بل إنها موجودة منذ ظهر الإسلام .. فالصراع بين الإسلام والباطل سنة كونية .. وإن التجربة الحضارية الإسلامية في التاريخ هي أقوى من أن تشوّه روعتها بعض الأتربة العابرة ، أو بعض الذين يحاولون حجب الشمس بغربالهم الفزيل .. فالحق هو الأقوى دائما .. ومن خلف كل الضبابيات استطاع الإسلام دوماً أن ينفذ بأشعته ، وأن يهدي الذين لدفهم بصائر .. أما العميان .. الرافضيون - مبدئيا - للحقيقة .. فلن ينتفعوا بهدى الإسلام ﷺ ولا يزالون مُختلفين إلا من رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خلقهم ﷺ ... ومع هذا الخلاف

المستمر بين كتيبة الحق ، وكتائب الباطل .. فالعاقبة - في نهاية
الصراع - للمتقين ، ﴿ وَإِنَّ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .. ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي
الرَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴾ .

صدق الله العظيم

رئيس رابطة الجامعات الإسلامية

د / عبد الله بن عبد المحسن التركي

تهييد

المؤرخون القدامى : القرن الأول والثاني الهجري

ظل التاريخ الإسلامي - دون غيره - هدفاً لهجمات مغرضة من بين تواریخ دول العالم ، ولا يزال حتى الآن هدفاً لهذه الهجمات المتنوعة التي أخذت أشكالاً مختلفة وفي مقدمتها : العصبيات القبلية ، ومصالح الشعوب والجماعات المختلفة ومسلك كل منها ، والاختلافات السياسية .

وقد مثلت هذه الأمور بداية تلك الهجمات ؛ ذلك لأن مصادر التاريخ الإسلامي التي كتبت في الأنصار العراقية ، وبخاصة في الكوفة والبصرة وبغداد ، لم تنبع من تعصب المؤلفين ورواية الأخبار الذين لم يبتعد أكثرهم عن العصبية بكافة أنواعها .

ومع أن هناك مؤلفين ورواة أوائل كتبوا في السيرة ، والمغازي وتوافرت الثقة فيهم من أمثال : أبان بن عثمان (المتوفى ١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٣٥ م) ، وعروة بن الزبير (المتوفى ٩٤ هـ / ٧١٢ م) ، وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم (المتوفى ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م) ، وعاصم بن عمر ابن قتادة (المتوفى سنة ١١٩ هـ / ٧٣٦ م) ، وابن شهاب الزهري (المتوفى سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م) ، وموسى بن عقبة (المتوفى ١٤١ هـ / ٧٥٩ م) ، ومعمر بن راشد (المتوفى ١٥٤ هـ / ٧٦٢ م) ، وغيرهم من الثقات الذين يعتد بهؤلفاتهم ، لكن هناك أيضاً من هم من أمثال شرحبيل بن سعد (المتوفى ١٣٣ هـ / ٧٤٠ م) ، ووهب بن منبه (المتوفى ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) ، ومحمد بن

إسحاق (المتوفى ١٥٠ هـ/ ٧٦٨ م) وأبي عشر السندي (المتوفى ١٧٠ هـ/ ٧٨٨ م) ، ومحمد بن عمر الواقدي (المتوفى ٢٠٧ هـ/ ٨٢٣ م) ، وهشام بن محمد بن سائب الكلبي (المتوفى ٢٠٤ هـ/ ٨٢٠ م) ، ومحمد بن سعد (المتوفى ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م) ، وغيرهم من يوجه لهم النقد نظراً لما اتصف به كتاباتهم من إفراط وتفريط . ومع أنه قد ظهر من بينهم من لم يثبت ضده أى نقد موجه من أهل الجرح والتعديل ، في ضوء الأبحاث الجديدة ، إلا أنه من الصحيح أيضاً أنه صدرت عنهم روایات ضعيفة بل موضوعة .

ويعتبر أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي (المتوفى ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م) من رواة ومؤلفي الحوليات ، وهو بالإضافة إلى تدوينه وتحقيقه بل وتعصبه لتاريخ قبيلته «أزد» كان أيضاً معيراً عن وجهات نظر الشيعة كما كان مخالفاً للروايات الشامية . وها هو سيف بن عمر التميمي (المتوفى ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) يكتب عن أعمال وما ثر قبيلته تميم ببالغة شديدة ، ويخلط كتاباته بعناصر رومانية ، بينما يتهم عوائد بن حكم الكلبي (المتوفى ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م) بتأليف روایات مكذوبة لصالح الأمويين والشاميين .

وسواء كان الاتهام الموجه إليه صحيحاً أم غير صحيح ، إلا أن هناك بالضرورة ما يدل على ميله الأموية في روایاته . ويفهم من خلال الدراسة التحليلية أن جميع رواة ومؤلفي الحوليات تقريباً يدخل في عملهم عنصر العصبية القبلية بصورة واضحة تماماً ، كما أنهم من الناحية السياسية كانوا يعبرون عن وجهات نظر قبائلهم . ويتحددون ببيان هذه القبائل .

ومع أن جميع المؤرخين وكتاب السير يتفقون بصورة عامة على أن روایات علي بن محمد المدائني (المتوفى ٢٢٥ هـ/ ٨٤٠ م) كانت معتبرة وموثوقة بها ، وأنها قائمة على منهج تاريخي صحيح وتفق تماماً مع العقل والقياس ، إلا أن بعض روایاته ضعيفة ولا تخلو من ميل مذهبية ، وفكريّة . وهذه حقيقة

تاريجية سلم بها المؤرخون والمحثثون بصفة عامة ، وهى أن جميع الروايات التاريجية التي جمعت في الأمسار العراقية : الكوفة والبصرة خاضعة للعصبية . [وجميع رواة الحوليات ينتمون في معظمهم لهاتين المديتين] ، وكذلك الشأن في الكتب التي كتبت عن موضوعات التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية فيما بعد – وبخاصة بعد تعمير بغداد وتطويرها كعاصمة للخلافة العباسية – فهذه الكتب كانت تضم أحكاما وأفكارا ضد الأمويين ، وكانت هناك أسباب عدة لهذا الأمر :

أولها : أن عصر خلفاء بنى أمية بدأ فورا بعد عصر الخلافة الرشيدة ، مما جعل المقارنة بين حكام العصررين أمرا طبيعيا ، وهى مقارنة كان وضع الأمويين فيها ضعيفا دائما ... بالنسبة للخلفاء الراشدين قمة الحضارة الإسلامية بعد الرسول .

وثانيها : أن نتيجة بعض أعمال خلفاء بنى أمية أدت إلى بدء حركة تمثلت في الطعن فيهم ، وهو طعن لم ينج منه الصحابة الكرام الذين ينتمون إلى البيت الأموي !!

وثالثها : الحسد أو التنافس السياسي الذي ظل قائما بين العراق والشام منذ البداية ؛ إذ كانت الشام مركزا للخلافة الأموية بينما كان العراق المعارض السياسي والمعارض « المذهبى » للشام .

ورابعها : أن الخلافة العباسية قامت على أساس معارضة الأمويين ، وبالتالي أصبحت الروايات والكتب التاريجية في العالم يسودها طابع العداء للأمويين .

المؤرخون العالميون :

يُعدُ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادى) العصر الذهبي لتدوين التاريخ الإسلامي حين ظهرت على الملايين المأثر العلمية للمؤرخين والمؤلفين الكبار .

فها هو كتاب « السيرة النبوية » الذى كتبه عبد الملك بن هشام (المتوفى ٢١٨هـ / ٨٣٣م) والموسوعة التى تعد طبقاً لأبحاث زماننا أكمل وأول مؤلف عن السيرة وصلنا حتى اليوم .

ومع أن هناك ثقة يدعمها الاطمئنان بما لدى ابن هشام من قدرة منهجية ، إلا أن العديد من الروايات عنده - رغم احتياطه الكامل - لا يمكن أن توضع على محك علمي الرواية والدرایة ، هذا بالإضافة إلى أننا نلاحظ ميله إلى القبائل الجنوبية وبعض الأفراد ، وهذا إن دل على شيء فإثنا يدل على تأثير عامل العصبية القبلية لديه .

أما إمام علم التاريخ في هذا القرن فهو محمد بن جرير الطبرى (المتوفى ٩٢٣هـ / ٣٢١) ورغم الإجماع على إمامته التاريخية إلا أن المعروف أنه جمع في كتابه العظيم « تاريخ الرسل والملوك » الروايات المسندة إسناداً صحيحاً وغيرها من الروايات غير الصحيحة ، وقد جمع الروايات الصحيحة والروايات الضعيفة والموضوعة في سياق واحد ! ! ولم يدرسها أو يخللها أو يكشف ضعفها ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح من الصعب على القارئ العادى أن يميز الصحيح من الخطأ فيها .

وقد شاع قول النقاد والمحاذين فيه : « بأنه جامع للروايات أكثر منه مؤرخاً » وهو رأى صحيح إلى حد ما ، وربما أدرك هو نفسه ذلك وشعر به !!!

أما كتب أحمد بن يحيى البلاذري (المتوفى ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) فتعد من أهم المصادر فيما يتعلق بتدوين تاريخ القرون الأولى ، لأنه وضع الروايات العراقية جنباً إلى جنب مع الروايات الشامية ، لكنه لا يعرض التاريخ بصورة مترابطة وسلسلة ، وهو في بعض الأوقات يقبل الروايات الضعيفة .

أما أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي (المتوفى سنة ٩٠٣هـ / ١٥٩٢ م) فهو مؤرخ شيعي بصورة أساسية ، ورغم ذلك تقلّ عنده عناصر المبالغة والأسلوب الخرافى الأسطورى ، إذا ما قورن بالآخرين . وعلى العكس منه أبو حنيفة الدينورى (المتوفى ٨٩٥هـ / ١٤٨٢ م) والذى بُلأ إلى الأسلوب الأسطورى الحالى ، رغم أن موضع بحثه كان واسعاً ، ويتضمن أمم العالم المختلفة .

هذا بينما يعدّ مواطنه ابن قيبة الدينورى (المتوفى ٢٧٦هـ / ١٨٨٩ م) مؤرخاً حقيقياً ومحترفاً به بصورة عامة على أنه ثقة ، مع أن تاريخه من ناحية أخرى يفتقد طابع التسلسل التاريخي في كتاباته !!

وكان معظم مؤلفى القرن الرابع حتى السادس المجرى (العاشر حتى الثاني عشر الميلادى) يتمتعون بإحساس ناضج بالتاريخ ، إلا أن توجههم الأساسي كان لعصرهم دون غيره من العصور ، واكتفوا بالأخذ عن شيوخهم الكبار السابقين ما يحتاجون إليه من أخبار قرون التاريخ الإسلامى الأولى .

ويعد على بن حسين المسعودى (المتوفى ٩٥٦هـ / ١٤٤٥ م) ومعه حمزة الأصفهانى (المتوفى ٩٧٠هـ / ١٣٦٠ م) من أهم المؤرخين ويفهم من تعليقات ابن خلدون (المتوفى ١٤٠٦هـ / ٨٠٨ م) وتلامذته أن المسعودى لم يكن موقفاً تماماً رغم كونه مؤرخاً يمتاز بالحسن التاريخي ، فهو لم ينج من السير على طريقة العصبية ، ومن قبول الكتابات المزورة ، والروايات الملفقة .

ولم يكن مؤرخو هذين القرنين والقرون التالية لهم مؤرخين إسلاميين بمعنى الكلمة ، فلم يرأوا من العصبيات الاجتماعية ، والمحاباة القبلية ، والميول السياسية ، والخلافات الفقهية ، والنزاعات المذهبية . وقد صدر هذا عن بعضهم نتيجة لنقص في المعرفة إلا أن عدداً كبيراً منهم قد ترك جروحاً وبثوراً وبصمات سيئين عن عمد وعن قصد على صفحات التاريخ الإسلامى ؛ نتيجة

لتدوينه لما يعجبه وما لا يعجبه ونتيجة لعصيبيه ، وهكذا قام معارضو الإسلام بالاستفادة من الكتابات الضعيفة لدى هؤلاء الكبار العظام وجعلوها عوناً لهم أثناء هجماتهم الفكرية ومؤامراتهم المغرضة على تاريخنا العظيم .

المستشرقون :

لاشك أن المستشرقين هم أكثر من شوهدوا التاريخ الإسلامي . وطبقاً لنصحيات العلماء والباحثين فقد بدأ الاستشراق أساساً لطعن الإسلام وتشويه صورته ، وقد امتلأت قلوب المعارضين للإسلام ، وبخاصة من أهالي البلاد المفتوحة بالعداوة للإسلام ، وهي عداوة امترجت بالحقد والكراهية ، وبعدها انتقل هذا الشعور المعادى للإسلام من جيل إلى جيل لقرون في شكل روايات راجت بين الروم والبيزنطيين والآراميين والمسيحيين واليهود . وهي روايات اعتمدت في معظمها - إن لم تكن كلها - على الشائعات واتسمت بالجهل بالحقائق والعداء الصارخ للإسلام .

وهكذا طوت هذه الروايات رحلتها عبر الزمان على « مطية » الإشاعات ، كما عبرتها أحياناً على صفحات كتابات ومؤلفات تاريخية ، وعلى كتب الرحلات والأسفار . وقد أشعلت هذه العداوة للإسلام العصبيات القومية والنعرات الحضارية والشعوية ، إلا أن المسلمين قد نجحوا - مع ذلك - إلى أن يصلوا بالحضارة إلى مدارج عالية وإلى أن يرقوا رقياً سياسياً كبيراً وتسع فتوحاتهم وتصل عندها العداوة للإسلام إلى حد إعلان الحروب الصليبية .

وحين فشلت قوة سيف ومدافع العالم الغربي والنصراني في إطفاء نور الإسلام ، بدأ هذا العالم الغربي والنصراني في استخدام خداع حركة الاستشراق ، وبدأت هذه الحركة تبدو منظمة ومنسقة في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وبدأ جرير دى أرالياك (Gerber de araliac) وقسطنطين

الأفريقي Castantian African ، وأدلرداي باغ (Adelardy Bagh) وروجر بيكن (Roger Bacon) وجون الدمشقى ، بدأوا بحملاتهم المغرضة على التاريخ الإسلامى والسيرة النبوية .

وبعد قرون بدأ كل من فولتير (Voltaire) واليكسندر روس (Alexander Ross) وهيلبرت (Hildebirt) ودانى (Dante) وغوليوس بوستل (Guillaume Postel) وجوزف اسكالىيه (Joseph Scaliger) في طبع أبحاث علمية معادية للإسلام .

ومنذ القرن السادس عشر الميلادى بدأت حركة الاستشراق عملها طبقا لخطة عملية محكمة ، وصلت إلى ذروتها في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ؛ إذ قام المستشرقون المشهورون من أمثال وليم بيدويل (William Bedwell) وب فاتيه (P. Vattier) وهاتينجر بتشويه السيرة النبوية تشوينها ذريا ، وكانت دوافعهم من وراء كل هذا دوافع دينية بحتة . وإذا ما استثنينا المستشرق هنرى ستوب (Henry Stubbe) الذي كان إلى حد ما يتصف بالعدل والإحساس والشعور والضمير ، فإن جميع المؤرخين الغربيين حملوا على قلوبهم علامات تدل على عداوتهم للإسلام ورغم أن كلا من سيمون أوكلانى (Simon Ockley) وإيدوارد بوكانك (Edward Pococke) وجورج سيل (George Sale) ، وإيدوارد جيبون (Eduard Gibbon) وفولتير (Voltaire) قد التزموا بال موضوعية أحيانا إلا أنهم استهدفوا في معظم الأحيان وضع السمس بين صفحات التاريخ الإسلامى .

وخلال القرن التاسع عشر حتى الرابع الأول من القرن العشرين ، وصلت حركة الاستشراق إلى قمتها ، وفي هذه الفترة قام عدد من المستشرقين بالبحث عن جوانب التاريخ الإسلامى المختلفة والبحث في أزمنته المختلفة ، وألقوا الضوء على نواياهم واتجاهاتهم من وراء أبحاثهم تلك .

ومن بين هؤلاء جان جاك سيديلو ، وديفرجيه (Desvergers) وبيرون

وی. ه. پالمر (E. H. Palmer) ، وجوزف وایت (Joseph White) ، ه. بریزین (Beresine) و دی. گوئیه (De Goeje) و وستنفیلد (Wustenfeld) و بیریزین (Bierzein) و سخاو (Sochau) و فان کریمر (Van Kremer) و ولیم میور (William Muir) و لیبون (Lebon) و جولد تزیهر (Goldziher) و ولهاؤزن (Wellhausen) وغیره .

وأيضاً قام مستشرقون العصر الحديث بالكتابة عن الإسلام والتاريخ الإسلامي من وجهة نظرهم الاستشرافية الخالصية ، ونذكر من بينهم مونتن (Montent) ، ج ديمومبيون (G. Demombynes) و ت . أرنولد (T. Arnold) إس لين بول (S. Lan-Poole) ونكلسون (Nicholson) ونولدكه (Noldeke) وهرجنر (Hergrenje) وجوزيف هوروتس (Joseph Herotitz) ، وبروكلمان (Broekolman) وبارتولد (Bartthold) و ه . ج . ويلز (H. G. Wells) و ه . جب (H. C. Gibb) و سميث (W. C. Smith) وجوزف شاخت (Joseph Schacht) وبرنارد لويس (Bernard Leuis) وتور اندرية (Tor Andre) وفرانسيسكو جبرائيلي (Francisco Gebraeli) ومونتجمري وات (Montgomery Watt) .

لقد قامت حركة الاستشراق في بدايتها بالتركيز على الهجوم على رسول الله عليه صلوات الله وآياته ، وعلى التاريخ الإسلامي . وكان هذا قائما على الجهل من ناحية ، والعداوة من ناحية أخرى ، جهل بالإسلام وعداوة للإسلام . ثم كانت المرحلة التالية ، فانطبع اتجاه مؤرخي تلك الفترة بعدم العلمية ، وساده الجهل الكامل ، إلا أن هذه الاتجاه بدأ يتوجه تدريجيا في التغيير ؛ نظرا للتعرف على المصادر الإسلامية ، ونظرا لرق الثقافة والحضارة ، وقد بدأ أسلوب الكتابة يسوده الاتزان ، ويتصف بالمعرفة ويرتكز على البحث والتحقيق ، إلا أنه من وراء كل هذا استمرت المؤامرة القديمة والخطة المسمومة البالية .

وفي الفترة الأخيرة بدأ الهجوم على التاريخ الإسلامي متخفيا داخل رداء أسلوب الفكر العلمي القائم على البحث وأسس التحليل والتقد . ومع أن هؤلاء المستشرقين ومن يساندهم قد أدعوا أنهم طالعوا التاريخ الإسلامي والعلوم والفنون الإسلامية ، مطالعة قائمة على الحيادية والإنصاف بإخلاص وأمانة ، إلا أن الحق أنهم لم ينصفوا حتى الآن التاريخ الإسلامي . فالمستشرقون أساساً قاموا بمطالعة الإسلام وقراءته . وفي أذهانهم وعقولهم خلفيات قائمة على الخلط بين الإسلام والمسيحية ، والإسلام واليهودية والمشرق والمغرب ، وقد قاموا أولاً بالهجوم الواضح الفاضح الذي يدل فقط على كراهيتهم الشديدة للإسلام ، ولا شيء غير ذلك ، ثم تدرج المنهج مع تطور العقل ، فترك المستشرقون أسلوب الكراهية الواضحة والعداء الواضح واتجهوا للتستر وراء الطريقة العلمية ، وطريقة العرض التي تحمل بين طياتها إثارة الشبهات والشكوك في التاريخ الإسلامي بطريقة خبيثة ، فادوا بذلك مهمتهم على أحسن وجه ، ونجحوا في خداع البسطاء من انطوت عليهم حيل المستشرقين الخبيثة !!

الاتجاهات الجديدة في كتابة السيرة والتاريخ

لقد بدأ اتجاه جديد لكتابية السيرة والتاريخ الإسلامي في العصر الحاضر . وهذا الاتجاه يقوم على مطالعه التاريخ الإسلامي طبقا لنظرية التفسير الاجتماعي والاقتصادي للتاريخ ، وهى نظرية حديثة . وهكذا بدأ العديد من المؤلفين والمورخين ، من بينهم مسلمون ، بتتبع العوامل والمحركات والدوافع الاجتماعية والاقتصادية أثناء مطالعاتهم لجوانب التاريخ الإسلامي ، وقام البعض منهم بوضع نصب عينيه - سلفا - نظرية الصراع الطبقي والجدل للاشتراكية ، والنظرية القائلة بالتفسير المادى للتاريخ ، وهكذا صاغوا التاريخ الإسلامي على أساس أنه تاريخ للصراع الطبقي ، وهكذا يرى هؤلاء المؤرخون الاشتراكيون أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية هي المسئولة عن حركة التاريخ الإسلامي ، وليس العوامل السياسية أو الدينية !!

وطبقا لنظريتهم هذه فلا وجود لتأثير العوامل الدينية والأخلاقية في التاريخ ، ويمكن أن نرى النتائج الخطيرة ، والتأثير العميق للأفكار المتعلقة بالنظريات الاشتراكية والعوامل الاقتصادية لدى المستشرق الألماني هوبرت كرام (Hubert Crime) ود . س . مارغليوث D.S.Margoliatt والمستشرق بربنس لون كتان (Prince Leen Caetain) وبرنارد لويس (Bernard Lewis) ومكسيم رودنسن (Maxime Rodinson) . هذا بينما نرى (مونتجمرى وات) يركز كثيرا على وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية وذلك من خلال كتاباته التاريخية .

ومن بين المؤرخين المسلمين نرى عبد الحى شعبان الذى يمثل الأسلوب الاشتراكي في الكتابة ونرى الكاتب اليسارى المصرى أحمد عباس صالح ،

ورصيفه محمود أمين العالم ، وأخيراً محمود إسماعيل وعبد المنعم ماجد بدرجة كبيرة هذا بينما يمثل وجهة النظر الجديدة أو الاتجاه الجديد المسمى بالاتجاه الطبي ، أو اتجاه علم الأمراض Pathological كل من اسبرنجر Sprenger ، وهنري لامنس Henry Lammens ، وتور اندرية Tor Andre وطبقاً لنظرية اياتهم قام هؤلاء المستشرقون فجذوا ثراث طيبة لخدمة الاستشراق في باب سيرة الرسول وفي التاريخ الإسلامي .

المؤرخون المفترضون والانتهازيون :

إلا أن أخطر طبقة من هؤلاء هم أولئك الذين يجرحون في التاريخ الإسلامي ويطعنون فيه ، وذلك بما لديهم من طبع سيء ، ومكر وخبث ودهاء ، فأدعية علم التاريخ من المؤرخين والمؤلفين ، يقومون بالبحث في روایاتنا ومصادرنا ، فينتقون من بينها الروايات والشروحات التي تخدم أهدافهم وأغراضهم الرامية إلى تصديق المزاعم والأفكار التي يعتقدونها سلفاً ويرثمنون بها مسبقاً ، وبالتالي ، وعلى بعض المواد والمعلومات المتنقلة والمخالفة أقاموا بنيان كتاباتهم التاريخية الجاهلة من أولاها إلى آخرها ، من أول لبنة فيها حتى آخر طابق فيها .

ومن الغريب أن هؤلاء الأدعية الماسخين للتاريخ حين لا يجدون معلومات أو روایات تؤيد ادعائهم ، يقومون بإطلاق العنان لخيالاتهم . فيثبتون أحداثاً وواقع تاريخية بعيدة كل البعد عن الواقع ، وذلك من خلال مطالعاتهم لما بين السطور ، وعلى كل حال فإن اتجاههم هذا لا يقوم فقط على الافتقار إلى التمييز بين الصحيح والخطأ من المصادر والمراجع ، أو بين المسند والضعيف من الأخبار ، بل هم يقبلون الروايات الخاطئة والضعيفة ، ويصرفون النظر عن الروایات الصحيحة .

وهذه الطبقة من المؤرخين في معظمها إنما يقوم أصحابها بعرض الروایات

التاريخية بطريقة معوجة مموجة ملتوية ، ليخرجوا من وراء ذلك بنتائج تحقق هدفهم ، رغم أنها من الناحية التاريخية خاطئة تماماً .

وهناك جريمة أخرى يرتكبها هؤلاء يمكن أن نلاحظها في كتاباتهم وهي أنهم لا يوثقون بياناتهم وتفسيراتهم بذكر مصادر معتمدة لأية رواية . وذلك لأنها قائمة أساساً على مزاعمهم وعلى أهوائهم وميولهم ، ولا وجود أبنة لمصادر تؤيد مزاعمهم وافتراضاتهم ، وإذا ما ذكروا مصادر تؤيد مزاعمهم فهى في معظمها مصادر مشبوهة أو مرفوضة !!

ومن أمثال هؤلاء المؤرخين نذكر بالهند « المؤرخ » البروفيسور (خورشيد أحمد فاروق) فكتاباته ما هي إلا مجموعة من الروايات المخلوطة من هنا وهناك التي تنتهي بالضرورة إلى التفسيرات الخاطئة والنتائج المنسوخة .

ونذكر من المؤرخين العرب (جورجى زيدان وفليپ حتى) وآخرين يندرجون تحت هذه الطبقة ، ومع أنهم يندرجون تحت تصنيف المؤرخين المستشرقين إلا أنه لا فرق بينهم وبين من يدعون التاريخ والتأليف من المستشرقين من ناحية المحرّكات والوسائل والأهداف ، فهم يشتّركون معًا فيها للوصول إلى هدف واحد ، وهو تشويه حقيقة التاريخ الإسلامي . ولا بد — لكي تتحقق الأهداف — من أن تأخذ طريقة كتابة هذه الطبقة وأسلوب استدلالها الطابع الذي يميز طريقة كتابة العلماء ، مما يُرهب القارئ ، وينشر فيه بحث لا يتمكن من إدراك ما وراء كتاباتهم هذه ، ولا يتمكن من فهم بياناتهم الخاطئة وتفسيراتهم المسقطة على الواقع والوجهة لأهداف محددة .

المؤرخون المحاذون

يندرج تحت طبقة المؤرخين المحاذين بعض العلماء والمفكرين المسلمين الجدد من قاموا ببحث فترة ما من فترات التاريخ الإسلامي ، أو عصر حكم

من التاريخ الإسلامي بحثاً تاريخياً تفصيلياً ، وهؤلاء متازون وبارعون فيما يتعلق بتطورهم العلمي ، وصلابتهم الدينية وفكرهم العالى ومطالعتهم الواسعة ، ومعلوماتهم الوفيرة وقدرتهم على النقد والتحليل . كما أن دوافعهم ونواياهم ليست خالصة لوجه الله . وهؤلاء أمامهم مشكلتان يعجزون حقيقة عن علاجهما ، المشكلة الأولى هي أنهم رغم ما لديهم من علم وفضل يفتقرؤن إلى الإدراك التاريخي السليم . وذلك لأن تراثهم ونشأتهم العلمية لم تكن لتهلهم ليكونوا مؤرخين .

وال المشكلة الثانية هي أن هؤلاء افتقرؤا إلى أصلالة المنهج وعمق التفكير في كتاباتهم التاريخية من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهم يقيمون بعض نظرياتهم بناء على أفكارهم وميولهم ومزاعمهم التي اعتنقوها وآمنوا بها قبلًا ، ولم يتمكن هؤلاء من التخلص من هذه الأمور حتى وقت كتاباتهم لكتاباتهم وأبحاثهم . بل اعتبروا كتاباتهم القائمة على الأفكار والمزاعم التي يعتنقونها هي التفسير الصحيح للقيم الإسلامية والتاريخ الإسلامي .

وكانت النتيجة المنطقية لهذا الأمر ، أنهم يشاهدون مجرد جانب واحد من الصورة ، فيعرضون هذا الجانب الواحد فقط للآخرين ، ومن الواضح أن يجد هؤلاء من يميل إلى نظرياتهم تلك ، وقد أدى بهم سلوكهم المنحاز هذا إلى قبولهم للأخبار والروايات التي تتفق مع نظرياتهم وأفكارهم ، ثم يغفلون أو يتغافلون تماماً عن جميع الروايات والأخبار التي تتعارض مع خططهم المحددة أو يبررون عليها مروراً سريعاً . إلا أن السبب الأهم لسلوكهم هذا هو جهلهم بالمعلومات الحديثة ، مما تبع عنه ورود تفسيراتهم وشروحاتهم الخاصة بالتاريخ الإسلامي منحازة وتعالج جانباً واحداً ، كما جاءت ناقصة غير مكتملة ، وهناك أمثلة على هؤلاء المؤرخين من كتبوا بالأردية في شبه القارة الهندية الباكستانية ومن كتبوا بالعربية في مصر ولبنان . وكتنموذج لقد بحث بعضهم موضوع

تطور وسقوط نظام الخلافة الإسلامية ، وقدم نظريته التي يؤمن بها ، ودافع عنها دون عرض لوجهات النظر الأخرى .

اتجاه خطير

وهناك اتجاه فكري خاطئ غير إسلامي ترك آثارا سلبية خطيرة على التاريخ الإسلامي ، وهو الاتجاه المتمثل في نظرية التفريق بين الدنيا والدين ، أو بين الدين والدولة ، ومن المسلم به أنه لا مجال - أىًّا مجال - لهذه النظرية في المبادئ الإسلامية ، فهذه النظرية من نتاج الرهbanية النصرانية ، وقد دخلت الإسلام عن طريق التصوف الذي خضع بدوره إلى تأثيره بالفلسفات المسيحية والبودية والهندو كية ، فطريقة الزهد والتنسك في الحياة في القرون الأولى إنما كانت ردّ فعل للمادية الشديدة وحب الدنيا الذي طغى وسيطر بشدة على بعض طبقات المجتمع الإسلامي .

فقد قام الزهاد والنساك المسلمين بخوض معركة الدفاع عن الدين حتى يقيموا التوازن بين الدين والدنيا ، وهو الأمر الذي يمثل أساس الإسلام . وكان هذا الأمر بذاته هو هدف التصوف الإسلامي في البداية إلا أنه حين بدأت عناصر غير إسلامية تدخل فيه كانت النتيجة التي لمسناها هي التفريق بين الدين والدنيا ، فانكمش الدين ليصبح مجموعة من الرسوم قائمة على بعض العبادات ، وأصبحت السياسة والتجارة والزراعة والحكم والخدمات العسكرية كلها من أمور الدنيا التي يصبح الارتباط بها ضروريا للنجاة الأخرى والفلاح الدنيوي . ولقد قام بعض الخلفاء المسلمين والسلطانين وبعض الولاة والحكام فأوضحو أن السياسات الخاطئة ، والأعمال غير الصحيحة ليست من الإسلام ، وأدوا بالأشك فريضة النهى عن المنكر وأقاموا الأصول الإسلامية ، إلا أنهم من جانب آخر لم يحاولوا محاولة جادة الوقوف في وجه الاتجاهات اللا إسلامية ، فلم يؤدوا مبدأ « الأمر بالمعروف » بل اتجهوا بدلاً من هذا إلى

الخانقاهات والتكايا ، ولم يكتفوا بهذا بل نصحوا الآخرين أيضاً بالابتعاد عن الحكم والسياسة ، مما نتج عنه تكاثر عدد الأشرار ورجال السوء داخل ديوان الحكم ، ويوماً بعد يوم أصبحت مناصب السياسة والسلطة غير إسلامية .

ومن ناحية أخرى فإن النزوع إلى السلبية وعدم التعاون مع الحكومة لم ينتشر فقط بين الناس ، بل أصبحت فكرة تقويم الحكومة فكرة تعارض مع الإسلام . وكذلك أصبح التعاون والاشتراك مع الحكومة اتجاهًا غير إسلامي .

وهكذا لم يعد علماؤنا والرجال الصالحون فينا والغالبية العظمى من عامة الناس معارضين فقط لحكومة زمانهم أو على الأقل غير متعاونين معها ، بل أصبحوا أدوات لمحاولة إضعاف هيئات الحكومة الإسلامية وسياساتها ، وكان أكثرهم السبب في الضعف السياسي ، وتطور الهيئات السياسية بطريقة غير طبيعية ، أو زواها من البلاد الإسلامية .

وليس من سبب حقيقي لهذا السلوك سوى هذه السلبية لهؤلاء العلماء والمتصوفة وعامة الناس الرافضين للإسهام في صناعة التقدم ، وللأسف فقد أخذ هذا الاتجاه الخطير المتحيز له المؤرخون اتجاهها وسلوكيًا عاماً ، بعد أن مسح بحيرة قلم جميع خدمات الخلفاء والحكام المسلمين .

وقد ظهر هذا السلوك وهذا الاتجاه بوضوح تام في التاريخ الإسلامي بعيد النصف الثاني من القرن الأول ، ولم يكن هناك فرق في هذا بين مؤرخينا وبين المؤرخين الآخرين من غير أهلهنا ، وهكذا جاءت جهود العلماء الانهزائيين ونظائرهم من المفكرين والمؤرخين ناقصة وخاطئة .

وقد استغلوا الحيل الشرعية والخدع الفقهية ، واستفادوا منها لتحقيق أهدافهم ، فجعلوا يشرّحونها بطرق عكssية أحياناً وملتوية أحياناً أخرى ، وهكذا أخطأوا أيضاً في كتابة التاريخ ، وبناء على مجموعة من الأعمال أو

الإجراءات اللا إسلامية أو اللا أخلاقية جعلوا جميع إدارات الحكومة وإدارات المحاكم كلها غير إسلامية . وكان الواجب عليهم أن يتبعوا الأسلوب الصحيح ، فيثبتوا خطأ ما هو خطأ ، وينقدوه بموضوعية ، ثم ييرزوا ويؤيدوا ما هو صحيح ، وذلك لأن عمل المؤرخ في الحقيقة إنما هو تقييم الروايات وتحليل الأحداث والواقع التاريخية ، وعليه فإن إصدار الفتاوى والأحكام الإجمالية العامة يخرج تماماً وبأى حال من الأحوال عن دائرة عمله ١١

ونحن في الصفحات المختصرة التالية سنقوم بتحليل معظم المجممات المغرضة والحملات الفاسدة التي عممتها أصحابها على مختلف عصور التاريخ الإسلامي

وهنا يظهر سؤال هام وهو : ماهي عصور التاريخ الإسلامي ؟

إن عصور التاريخ الإسلامي تتضمن بلا شك العهد النبوى حين كان الإسلام في أوج قوته وعظمته الدينية والدنيوية . ولا شك أنه يتضمن أيضاً زمان الخلافة الرشيدة ، حين كانت أمور الخلافة تمضي طبقاً للقرآن الكريم والسنّة النبوية ، ولكن هل يتضمن التاريخ الإسلامي أيضاً عصور الخلافة الأموية والعباسية ، حين تسرّبت بعض العناصر اللا إسلامية في الحكومة والسياسة ؟ وما هو الاسم الذي يطلق على مختلف عهود الحكومات الإسلامية في زمان الخلافة العباسية ؟

إننا سوف نجيب على هذا السؤال بعد التحليل التاريخي لكل حكومة وخلافة ، وبطريقة أصولية ، ولا شك أنه يمكن الإجابة على هذا السؤال بطريقـة أصولـية ، وهو أنه لا يوجد شـكل خـاص أو إـدارة مـعـينة لـلـحـكـومـة والـسـيـاسـة فـي الإـسـلام . وـالـحـكـومـة وـالـسـلـطـة التـي مـضـت طـبقـاً لـلـأـصـول الإـسـلامـية هـي حـكـومـة إـسـلامـية وـسـلـطـة إـسـلامـية . وـتـتـصـف بـإـسـلامـيـتها طـبقـاً لـلـقـدـر الـذـي مـضـت عـلـيـه طـبقـاً هـذـه أـصـول ، وـبـقـدـر مـا تـعـارـض سـيـاسـتـها مـع هـذـه أـصـول بـقـدـر مـا

تكون غير إسلامية ، ولقد قام علماؤنا وفلكروننا ومؤرخونا بوضع الحكومات الإسلامية منذ زمان العهد النبوى وحتى زماننا على محك تلك الأصول ، فأصدروا قراراتهم بإسلامية هذه الحكومة وعدم إسلامية تلك الحكومة . ولم يستطع واحد من المؤرخين النصفين أن ينفي إسلامية الدولة الأموية أو الدولة العباسية أو الدولة الأيوبيه ؟ أو الملوکية أو دولة العثمانيين - على الأقل من ناحية الأصول - فضلاً عن خضوع خلايا كثيرة في الحياة للنظام الإسلامي في هذه الدول العظمى .. وبالتالي فهي داخلة - بكل المقاييس - في عصور التاريخ الإسلامي .. حتى وإن اختلفنا مع بعض صور التطبيق فيها كما هي سنة الله في الحياة البشرية !!

وعلى كل حال فتحن - من ناحية المجمّمات المفروضة - سوف نقتصر في عرضنا هذا على تحليل العهد النبوى وعهد الخلافة الرشيدة ؛ إذ إن الغارات الفكرية المفروضة على التاريخ الإسلامي بأكمله أمر يحتاج إلى مجلد ضخم !!

العهد النبوى (٥٧١ - ٦٣٢ هـ)

على الرغم من أن كتابة السيرة تعد طبقا للأصول الحديثة جزءاً من التاريخ إلا أنها لا تمثل بحد ذاتها تاريخها ، فالسيرة النبوية تستثنى من هذه الكلية ؛ ذلك لأن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لازم وملزوم ، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما الآخر ... يمكن أن يكتب شيء عن الجزء الخاص بالفترة السابقة للبعثة في السيرة النبوية ، إلا أنه من ناحية أخرى يعد جزءاً من التاريخ الإسلامي ، ذلك لأن هذا الجزء من السيرة لا يمكن فصله عن شخصية الرسول الأكرم عليهما السلام ، رغم أنه يتضمن السنوات الأربعين الأولى قبل بعثته عليهما السلام تلك التي تتضمن خلفية هامة وضرورية للكتابة عن الإسلام ، وتحبب مطالعتها لفهم التاريخ الإسلامي . هذا بالإضافة إلى أن عدداً من الكتاب المغرضين قد حاولوا النيل من هذا الجزء من السيرة النبوية لتحقيق أهدافهم الذميمة ، ومن هنا وجوب الرد عليهم ، حتى يمكن كشف وجوه الحق حول سيرة الرسول عليهما السلام ، وحتى يمكن الوقوف على حقيقة الدوافع والمحركات الكامنة وراء هذه الهجمات التي تركت آثارها على التاريخ الإسلامي ، فيتم تداركها بطريقة صحيحة .

الاسم والنسب :

تتفق جميع مصادر التاريخ الإسلامي تقريراً أن مولده عليهما السلام كان في عام الفيل ، وأنه سُمي بـ محمد وأحمد ، وطبقاً لقول ابن إسحاق فإن آمنة تلقت الإلهام بتسميته بالاسمين بنداء من هاتف غبي ، ورغم أن المؤرخين لا يعترفون بهذه الرواية الغريبة . لأنها ليست رواية تاريخية ثابتة ، إلا أن الجميع يعترف بأن هذين الاسمين قد أطلقا عليه في النهاية ، وتشهد الأحاديث النبوية والمصادر التاريخية بصحّة هذه الحقيقة شهادة كاملة . ولم يكن إنكار المستشرقين وبعض

المؤرخين المحدثين الاعتراف بالسند التاريخي لهذين الاسمين راجعاً ب مجرد جهالهم وعداؤتهم الشديدة ، بل قاموا بتحوير اسمه الكريم مرة بعد مرة ، وتجنباً عمداً وقصدأً ذكر اسمه صحيحأ على ألسنتهم .

وفي النهاية وفي العصر الحديث اضطر الجميع إلى الاعتراف بالحقيقة التاريخية ؛ لأن إنكار هذه الحقيقة سوف يزق ستار علميهم وموضوعهم .

لقد ظل المستشرقون ومن مضاوا في ركبهم من المؤرخين الآخرين يطعنون في حسب ونسب الرسول الأكرم ﷺ فراحوا يخطون من قدر نسبه ، ويقللون من قدر حسبه ويقولون بأنه من أسرة اجتماعية متواضعة ، وقد قام مرجليوث ومن تبعه بوضع افترضهم على هذا الرعم الباطل بأن والده المحترم (عبد الله) توفي قبل مولده ﷺ ، ومن هنا كانت حالته المالية عليه الصلاة والسلام بعد يتمه غير طيبة ، وبناء عليه اتجه ﷺ في طفولته إلى احتراف رعى أغنام أهل مكة ، وبخاصة عمه أبي طالب ، وهذا في رأيهم دليل على تدني المستوى الاجتماعي ، وقد أغفل جميع هؤلاء المؤلفين والمؤرخين الشواهد التاريخية التي تثبت أنه أحد أفراد أسرةبني هاشم ، وهي من الأسر التي تتمتع بأشرف نسب ، وكان لها شرف السيادة في الأشهر الحرم على قريش مكة طبقاً للأصول آنذاك ، ومن هنا كان ينظر إليها نظرة إعزاز واحترام في جميع أبناء شبه الجزيرة العربية ، وكان لبني هاشم شرف تحمل مسئولية السقاية بين أشراف قريش ، وكل هذا لا يدل أبداً على تدني المستوى الاجتماعي ولا على الضعف المالي كما زعم المؤرخون المستشرقون . هذا بالإضافة إلى أنه قد اشتهر في العرب آنذاك أن يقوم أبناء الشرفاء والأحرار برعى ماشية الأسرة ؛ لأن الرعى كان حرفتهم ، وكان دليلاً على ثراء العديد من القبائل .

هذا وتبالغ بعض الروايات من مصادرنا ومراجعنا في أن بني هاشم كانت لها السيادة الكاملة في مكة المكرمة وبخاصة حتى موت عبد المطلب ، وكان

جميع زعماء القبائل والشيوخ تحت إمرتهم ، ومن بين من بالغ في الأمر فوقع في الخطأ مولانا شيل النعمان ، وبعض المؤرخين المسلمين ، وقد رأى أنه بعد وفاة عبد المطلب خرجت السيادة القومية والحكومة من بنى هاشم وتحولت إلى بنى أمية والدليل على هذا هو أن قائد جيوش قريش في حرب « الفجار » كان من بنى أمية ، بينما الحقيقة هي أن السياسة الملكية كانت قائمة أصلاً على أسس وأصول تحدد المسؤوليات وتحدد الإشراف عليها ، وطبقاً لهذه الأسس فقد كانت جميع بطون قريش تتال كل منها مسؤولية معينة بصورة تتساوى فيها البطون جميعها ، فإذا كانت السقاية في بنى هاشم ، فقد كانت الرفادة في بنى نوبل ، والقيادة في بنى أمية ، والمحاجة في بنى عبد الدار ، وهكذا كانت هناك عشر مسؤوليات تم تقسيمها على مختلف الأسر في قبيلة قريش في زمان قصى بن كلاب جد قريش الأكبر .

وتتضح هذه الحقيقة في جميع مصادر السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي مثل تاريخ مكة المكرمة للأزرق (المتوفى ٥٤٤هـ / ٨٥٨م) والفاكهى (المتوفى ٢٧٢هـ / ٨٨٦م) وغيرهما .

المنافسة بين بنى هاشم وبنى أمية :

أثيرت قضية المنافسة بين بنى هاشم وبنى أمية ، وأرادت بعض الروايات في مصادرنا أن تثبت أن هذه المنافسة بين هاتين الأسرتين - اللتين تنتهيان إلى عمومه واحدة من رجلين عظيمين من بطن بنى عبد مناف بدأت منذ عهد الجاهلية ، واستمرت حتى وصلت إلى زمان هاشم وحرب بن أمية ، بل صدرت بعض الروايات - التي لا يمكن تصديقها أو قبولها بحال من الأحوال - عن هذين الاثنين ، وطبقاً لهذه الروايات فإن أصحابها كما يظهر يحاولون إثبات أن المنافسة التي جرت بين الاثنين هي بذاتها نفس المنافسة التي استمرت بينهما طوال فترات العهد الإسلامي ، والتي جعلت بنى أمية يواجهون

ويعارضون بني هاشم ، بل جعلتهم أعداء يناصبونهم العداء على الدوام ، وهكذا قام بنو أمية - كما يدعى هؤلاء زورا - بمعارضة الإسلام ونصبوا المؤامرات ضد الحكومة الإسلامية ، وبعد أن نجحوا في خططهم تلك استولوا غصباً على الحكم ، وحين أصبحت السلطة في أيديهم أوقعوا الظلم والقهر ببني هاشم . كل هذه الاتهامات التي لو نزلت على جبل حطمنه ، ملأ بها الرواية المغرضون والمؤرخون الذين لا يمتنون للتاريخ بصلة روايات مصادرنا التاريخية .

إن أساس قضية المنافسة بين بني هاشم وبني أمية يجب أن ننظر إليها أصلاً في ضوء خلفية اختلافات الفتنة الكبرى ، وهي الفتنة التي أدت إلى الأمر المفجع الذي أدى بدوره إلى شهادة ثالث الخلفاء الراشدين ، فلم تكن هناك منافسة بصورة أساسية بين هاتين الأسرتين ، لا في زمان الجاهلية ، ولا في عهد الرسالة ، ولا في زمان الخلافة الرشيدة بطوله . فكلاهما ليستا فقط من أهم أعضاء بني عبد مناف بل بينهما صلة قرابة متينة لا تنفص عرها أبداً ، وبينهما صلة من الحب والانسجام لا تقطع أوصالها بأى حال من الأحوال . فابن عبد المطلب بن هاشم أبو هب ، وابناته أم الحكم يضاء وصفية ، هؤلاء كانوا ينتسبون إلى أسرة بني أمية . كما أن صلة المصاهرة هذه ظلت قائمة في أسرة رسول الله ﷺ ، وفي أسرة عمه أبي طالب بن عبد المطلب أيضاً .

وهكذا كان بين عقيل بن أبي طالب الهاشمي ، ورسول الله ﷺ علاقة زواج مع الأمويين : السيدة زينب ، والسيدة رقية والسيدة أم كلثوم ، وبعدها قام رسول الله ﷺ نفسه بالزواج من ابنة أبي سفيان السيدة أم حبيبة وظلت سلسلة المصاهرة والزواج مستمرة بين هاتين الأسرتين بل توطدت العلاقات أكثر فأكثر في زمان العهد الأموي . كما أنه لا يندر أن نجد أمثلة للزواج والمصاهرة في العهد العباسى .

وبالإضافة إلى صلة المصاهرة فإن رابطة العلاقات التجارية والاجتماعية بين الأسرتين كانت قوية واستمرت على هذا المنوال سواء كان ذلك في العهد الجاهلي أو في العهد الإسلامي ، وكانت العلاقة بين أبي سفيان الأموي والعباس الهاشمي تتسم بالمحبة والودة ؛ إذ كانت علاقتهما وثيقة ومتينة . وتحليل الصلات وال العلاقات التي ربطت بين الأسرتين تحليلا يشمل جميع جوانبها يدل على أن ما قيل عن منافسة غير ودية بينهما لا أساس له . وما ذكر في المصادر التاريخية يدلنا أيضاً على أن هذه الروايات قد صيغت أو تم « تلقيها » فبلغ فيها ، وجاءت هكذا بما حملته من مبالغة في مصادرنا التاريخية .

وهذه المحاولات ماهي أصلاً إلا صدى للميول العدائية لبني أمية ، التي جعلت الرواية من أعداء بني أمية يسلكون هذا السبيل من أجل مسخ هذا العهد الأموي العظيم في التاريخ الإسلامي ، بالإضافة إلى أن المؤرخين الجدد (من الماركسيين وغيرهم) من حاولوا تفسير التاريخ على أساس فكرة الصراع بين الطبقات وجدوا في تلك الروايات مأرثاً فراحاً يصعبون التاريخ الإسلامي على أساس وجهة نظرهم الشيوعية ليجعلوه تاريخاً صراعاً بين الطبقات !!.

حياة الرسول - المرحلة الأولى :

قام بعض المؤرخين المسلمين المحدثين بتحوير بعض الواقع البدائي في حياة رسول الله ﷺ ، ثم راحوا يفسرونها تفسيرات حديثة ويشرّحونها شرحاً جديداً ، هذا بينما اعتبر المستشرقون جميع أحداث سيرة الرسول قبل بعثته روايات غير تاريخية أو مجرد حكايات .

وهكذا لم توضع جميع وقائع ولادة رسول الله ﷺ ، وطفولته وفترة شبابه الأولى على محك التاريخ الموضوعي عند المستشرقين وطبقاً للتحليل فيليب حتى ، رغم أنه - أى محدثاً ﷺ - ظهر في نور التاريخ الكامل ، إلا أننا نجد عدة

روايات صحيحة فقط تتعلق بحياته في مراحلها الأول ، وفي كسبه للعيش وسعيه وجهده في محاولاته لبناء شخصيته وتطويرها ، وإعداد نفسه للمهمة العظمى التي تولاهما فيما بعد .

ونرى الفكرة نفسها لدى أعظم المستشرقين في العهد الحديث « مونتجمرى وات » الذى يعترف تماما بتاريخ ولادته عليه الصلاة والسلام وتاريخ وفاة والدته وتربية جده عبد المطلب ورعايته له ، ووفاته ، ويعرف بعد ذلك بإشراف عمه أبى طالب عليه وتربيته ورعايته له وبكل ما رافق ذلك من وقائع ، إلا أنه من ناحية أخرى يقر بأن جمیع الواقع والحقائق الأخرى ، ما هي إلا روايات تتعلق بالعقيدة وهى حكايات أسطورية .

وبصفة عامة يكذب المستشرقون رواية تربيته ورعايته في بيت حليمة السعدية في مضارب بنى سعد بن بكر وهذا هو رأى بعض المؤرخين المسلمين الحدثين أيضا ، فهم يزعمون أن هذه الرواية لا وجود لها في التاريخ الإسلامي كله ، ولا في عهد الجاهلية ، والرواية المقبولة لدى هؤلاء أنه عليه الصلاة والسلام أرسل إلى مكان ما بالبادية ليتدرج في التربية تحت إشراف مرضعته ، وهذه دعوى بلا شك غير صحيحة ، فمثل هذه الواقع العديدة نجد لها شواهد وعلامات في الحديث والسيرة وكتب أسماء الرجال . ويروى البخارى أنه بعد ولادة رسول الله ﷺ فإن أمه آمنة أرضعته أولا ، وبعد ثلاثة أيام أرضعته ثانية أمه ألى لهب وطبقا للرواية فإن حمزة أيضا قد أرضع عن هذه الأمة لعدة أيام ، وعليه فهو بالإضافة إلى أنه كان عمه في النسب فهو أخوه في الرضاعة وقد ذكرت عدة روايات موثوقة بها هذه الصلة . إلا أن المؤرخين المسلمين الحدثين أنكروا واقعة إرضاع ثوبية للنبي مجرد أن هذا الأمر لا يليق بالنبوة ، أو أنه قد يعده دليلا لدى من يريدون الطعن في النبوة ، ويعطون دليلا فحواه أن الله تعالى - طبقا لما جاء في القرآن الكريم - قد حرم على موسى عليه السلام

أن يرضع لبن أية امرأة أخرى غير أمه ، هذا بينما لم تكن علة التحرير في موسى أن يحفظ من رضاعة امرأة غير محترمة بل كان المدف الأساسي – وهو ما ذكره القرآن الكريم – هو العودة إلى أحضان الأم مرة أخرى ، فكيف يفهم بعضهم ، وعلى أي أساس – أن إرضاعه من امرأة أخرى يقبح في عظمة كونه رسولا !! وقد ارتبطت واقعة إرضاع حليمة السعدية للنبي ﷺ ببعض العجزات والكرامات ، وبعض هذه الروايات ضعيف وغير منسند ، ولكن هذا لا يعني بدوره رفض الواقعية كلها – وهو مالا يتنافي مع الصدق التاريخي ، ولا شك أن مسلك المؤرخين المسلمين المحدثين غير صحيح بالمرة .

وهكذا كذبت هذه الطبقة من المؤرخين المسلمين الروايات الخاصة برعاية أبي طالب للنبي ﷺ ، ويريدون أن ينال عمه الأكبر الزبير بن عبد المطلب شرف تربيته رسول الله ، وقد أقاموا هذا القياس المجرد طبقا للرواية القائلة بأن الزبير خلف والده ، كما كان ثريا أيضا ، وهذا فهو الألائق ب التربية ابن أخيه ، ودليلهم على ذلك أيضا هو أن أبا طالب لم يتمكن لضيق ذات يده أن يقوم ب التربية ورعايا عقيل وعلى ، وهذا أودع الاثنين – على الترتيب – تحت رعاية العباس بن عبد المطلب والنبي ﷺ .

وهذا استدلال سقيم من عدة وجوه . أوها أنه ليس من الضروري أن يكون الإنسان البرى بأقدر على الرعاية والتربية ، فاحبطة والشفقة أكثر ضرورة للتربية والرعاية الصحيحة من المال والثروة وتلك هي التربية التي نالها النبي ﷺ في بيت أبي طالب .

وحتى وفاة أبي طالب فقد كانت حياته كلها مرآة لشفقته التي لا حدود لها ، ولحبه العظيم له . ثم إن أبا طالب حين كان يرعى رسول الله ﷺ ، كان في شبابه ، كما لم يكن معدما أو فقيرا كما يظهر ، إذ إن واقعة رعي

رسول الله لما شيته إن دلت فإنما تدل على أنه لم يكن معوزاً أو معسراً بل كان ميسور الحال ، وطبقاً للدستور العربي كان امتلاك ماشية الرعي دليلاً على الثروة والغنى .

ومن ناحية النقد التاريخي ، فإن هذا الاستدلال أيضاً غير صحيح ؛ لأنه حين أصبح رسول الله ﷺ في كفالة أبي طالب ، لم يكن عقيل ولا على قد ولدًا بعد بل ربما لم يكن لأبي طالب آنذاك أولاد ، ومن هنا فلم يكن ثمة عباء في كفالة أحد .

ومن الصحيح أن العباس والنبي الأكرم كانوا تحت رعاية أبي طالب ، لكن من المعروف أن الرسول وعمه أبو طالب صارا من تجار مكة المعترف بهما ، بينما في وقت وفاة عبد المطلب كان رسول الله ﷺ في الثامنة من عمره وكان العباس في الثانية عشرة وحمزة في العاشرة .

وهكذا فإن جميع محاولات المؤرخين هؤلاء إنما ترجع إلى رغبتهم في أن يسلبوا أبي طالب وأسرته شرف كفالة النبي .

وفي النهاية نقول إن واقعة سفر أبي طالب إلى الشام و مقابلته لبحيراً الراهب إن لم تدل على ما كان لأبي طالب من ثروة فإنها تعبر بصدق عن أنه كان ميسور الحال ؛ لأن أيها من تجار مكة لم تكن لديه القدرة آنذاك على إرسال قافلة أو المضي بقافلة إلى الشام دون أن يكون صاحب ثروة كبيرة أو معقولة على الأقل .

قصة بحيراً الراهب :

رغم أن المستشرقين ومن حدا حذوهم من المؤرخين ينكرون جميع وقائع السيرة الأولى أو يعتبرونها مجرد أسطير لا تاريخاً ، إلا أنهم يذكرون واقعة أو

قصة الراهب بُحيرا بطريقة أو بأخرى ، حتى يتمكنوا من إثبات أن الرسول عليه السلام قد تعلم جميع أصول وقوانين الإسلام وفلسفة الدين بأكملها من راهب مسيحي أثناء سفره (وعبوره !!) إلى الشام .

ومن الجدير بالاهتمام أن أكثر المؤرخين المسلمين المعتمدين ونقاد الحديث وعلماء الجرح والتعديل ينفون هذه القصة ، ويعتبرونها من حيث أصول الرواية والدراءة قصة موضوعة ، إلا أن المستشرقين الذين ادعوا تحليلها ونقدتها لا يقولون فقط بصححة هذه القصة ، بل يعتبرونها القصة الوحيدة التي تشير إلى نبوءةبعثة النبي قبل وقوعها بحوالي ٢٨ سنة تقريبا ، وهكذا يجعلون الإسلام في صورة المستفيد من المسيحية في تشكيل الدين !!

ولم تتبادر حقيقة هامة إلى أذهانهم : كيف أن صبياً عمره ١٢ سنة لم يتق أى تعلم نظامي يمكن أن يفهم بعقليته البسيطة الأصول الفلسفية للدين وقواعد فكره العالمية وأصوله المعقدة ؟ ثم أليس هناك تضاد ظاهر في هذا القول ، فاليس المسيحية التي راجت آنذاك في الشام ومصر ، كم كانت مختلفة عن الإسلام من ناحية العقائد والأصول . بل إن تصور الدين والعقيدة في المسيحية والإسلام تصور مختلف ومنفصل تماماً كما اعترف بهذا « مونتجمرى وات » المستشرقون الآخرون . وهو ما سنوضحه في بحثنا بعد ذلك .

وعلى كل حال فسواء كانت رواية بحيرا الراهب صحيحة أو غير صحيحة مسندة أو ضعيفة ، وسواء اعترف بها علماء المسلمين والمؤرخون أم لم يعترفوا ، فإنها رواية صحيحة لدى معظم المستشرقين الذين لجأوا إلى التعمق الديني بدلاً من إعمال الإحساس والشعور التاريخي واستخدام الاستدلال التاريخي وأسلوب البحث الصحيح ، مما جعلهم يقررون أن الإسلام مأخذ من المسيحية .

رسول الله عليه السلام في شبابه :

والواقعة الثانية في جملة الواقع الهامة التي حدثت قبلبعثة المحمدية كانت

عام ٦٩١ وهي أن الرسول الأكرم قد اختار لنفسه حرفة التجارة ، واشترك في حرب « الفجار » وفي سنة ٦٩٥ تزوج النبي من خديجة ، وحين كان عمره ٣٥ سنة اشترك في تعمير الكعبة وخلف الفضول . وقد حاول المستشرقون أن يمروا على هذه الأحداث في عمومها مِنَ الْكَرَامِ . بل غضبوا أنظارهم تماماً عن أمر احترافه ﷺ للتجارة حتى يثبتوا أن ثروته إنما كانت نتيجة لرواجه من خديجة ، وقد عبر « حتى » عن هذا الزواج بقوله : « في زمان يصل بنا إلى دهاليز الفترة التاريخية المضيئة !! » أى أنه قبل ذلك كانت أحداث حياته ﷺ أساساً ساطير وخرافات وهذا زعم مرجعه تعصب « فيليب حتى » الديني ، وإلا فالحقيقة أن حياته ﷺ من المهد إلى اللحد كانت مرآة واضحة أمام تاريخ مضيء في بيت الزمان .

أما « مارجوليوث » فيتهم السيدة خديجة ورسول الله ﷺ اتهامات باطلة ، فيقول إنها كانا وهما نائمان يقومان بعبادة صنم يدعى « عُرّى » وكان هدف المستشرق سابق الذكر أن يثبت فقط أن عبادة الأوثان التي شاعت في مكة قبلبعثة تركت أثراً على عليه ﷺ .

هذا بينما أراد « وليم ميور » أن يثبت من خلال قصة بحيرا الراهب أن واقعة لقاء الرسول مع الراهب وما أخذته عنه من تعاليم كانت سبباً في كراهية الرسول الأكرم لعبادة الأوثان ، وطبقاً لبيانات المستشرقين سابق الذكر وزاعمهم تلك ، وللسبب نفسه نلاحظ التضاد الظاهر في بيانات كُلّ منها ، بينما أساس أفكارهما لا يقوم على أية حقيقة صحيحة ، بل يقوم على مجرد القياس والتخيين ، وهذا كان استدلالهما بأكمله استدلالاً مضللاً ويتعارض مع الحقائق التاريخية .

وقد خرج « مارجوليوث » من أسفار الرسول التجارية بنتائج محيرة وهي أن ما جاء ذكره في القرآن الكريم من السفن التي تمشي في البحر والطوفان

وغير ذلك من أمور إنما ترجع إلى التجارب والمشاهدات الذاتية للرسول ﷺ^(١) وعليه قام المؤرخ المذكور - بناء على قياسه وظنه - بالرغم بأن الرسول سافر إلى مصر أيضا . مع أن جميع كتب التاريخ الإسلامي تخلو من هذه القياسات الضالة المضللة والنتائج العجيبة .

والمهدف الذي يرمي إليه المستشرق من ذلك هو أن يثبت عن طريق الاستدلال أن القرآن الكريم هو من كلام الرسول ، وليس بالكلام الإلهي ، بينما يثبت بالروايات التاريخية وبطريقة متواترة أن كلام القرآن الكريم هو كلام من عند الله ، أنزله من اللوح المحفوظ نزل به جبريل الأمين على فؤاده ﷺ .

ويحاول كثير من مؤرخينا المعاصرین بعامة والمستشرقین بخاصة أن يثبتوا أنه بعد زواج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة ، تحسنت أحواله المادية وهذا ترك العمل بالتجارة وبقية الأعمال الأخرى ، وبدأ الانصراف إلى العبادة والرياضة الروحية وهذه النقطة تعطى دفعة لإثبات هدفين هؤلاء .

الأول : هو أن ثروته كلها كانت بسبب اعتماده على ثروة السيدة خديجة .

والثاني : أنه بعد أن تحسنت أحواله المادية انصرف عن مشاغل الدنيا وأعمالها ، وانصرف إلى العبادة والرياضة بينما يتضح من الروايات أنه ﷺ ظل يعمل بالتجارة بعد الزواج ، كما كان قبل الزواج إذ عمل بالتجارة وهو في العشرين ، وعلى العموم لقد اعتمدت حياته التجارية على تجربته الطويلة لعشرين سنة نال خلالها تجرب متنوعة ، وأضافت أيضا إلى ثروته . كما يثبت من الروايات أن « التحدث » [الرياضة والعبادة] الذي كان يقوم به ﷺ إنما كان لشهر واحد (رمضان) خلال السنة بأكملها ، أما باقي السنة فكان

(١) قال لي أحد الأساتذة اليابانيين أنه يؤمن بمحمد رسوله وبالقرآن كتابا متولا من عند الله وسيب إيمانه بذلك ما ورد ذكره في القرآن عن الزلزال ومن المعروف - يقول الأستاذ - أن المجزرة العربية منطقة خلت تماما من الزلزال ، ودقة الوصف في القرآن لا يمكن أن يأْنَى بها بشر . (المترجم)

يقضيها في أداء واجباته الدنيوية ومنها التجارة أيضا . واستمر هذا إلى آخر أيام حياته قبل البعثة وفي هذاخصوص نرى روایات كثيرة جدا في مصادر مختلفة ، إلا أنها غير واردة بشهورها وسنواتها حتى يمكن تحديد التدرج التاریخی أو الترتیب التاریخی لحياته التجارية طبقاً لذلك .

وما جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة الصبح عن ثروة النبي وغناه إنما يتعلق بزمان عمله بالتجارة ، وطبقاً لروايات المفسرين الكبير فإن هذه السورة تتعلق بالفترة الأولى لما بعد البعثة مباشرة ، وما ورد فيها من ثروة إنما يرجع إلى ثروته الشخصية التي لم تكن مرهونة بمنة أحد غيره . ولهذا فما ي يريد المستشرقون إثباته من فكرة الرهبانية إنما هو أمر خاطئ ، فحياته عليه السلام كانت كلها جهداً وجدًا وكفاحًا وعملاً متواصلين .

البعثة النبوية (رمضان ١٣ قبل الهجرة / ٦١٠ م)

إن أكبر اعتراض أثاره المستشرقون هو اعتراضهم على الوحي الإلهي الذي أنزله الله تبارك وتعالى عن طريق الروح القدس على رسول الله ﷺ . ومن أسباب اعتراضهم عدم درايتهم بالمصادر الإسلامية وجهلهم بحقيقة الوحي الرباني ، وأكثر من هذا تعصبهم الديني وعداوتهم للإسلام ؛ لأن أكثر المستشرقين إما أنهم مسيحيون وإما أنهم يهود . ولهذا فهم يدركون أنهم إن اعترفوا بنزول الوحي الرباني فإن هذا يعني اعترافهم بالرسالة الحمدية ، وهذا يعني عندهم إنكار نبوة موسى وعيسى عليهما السلام . وهذا مالم يكونوا على استعداد له أبداً . ومنذ البداية وحتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . شاع في الغرب أن الوحي الذي نزل على محمد (خداع) Imposter ، واتهم الرسول ﷺ بأنه خدع الناس بإيمانهم بتلقى الوحي الرباني وذلك حتى ينال نفسه أهدافاً سياسية واجتماعية واقتصادية .

وبعد ذلك بفترة ظهرت قصة الياءمة ، وكانت من خرافات العقل الأوروبي ، وطبقاً لهذه الأسطورة فإن ياءمة كانت تجلس على كتف الرسول وكانت تلقط من أذنه الحب وهكذا كان يوهم الناس أنها تخبره بالكلام الإلهي . ولا نرى ضرورة للحديث عن هذه القصة الخرافية التي لا معنى لها . فجانبها الخرافي واضح وأظهر من الشمس أما «لامانس» فهو يقرر أن الوحي الإلهي كان نتيجة أضطراب أحلام ونتيجة لخدس ذاتي (Outo - Suggestion) هذا بينما يرى البعض أن نزول الوحي كان نتيجة غيبوبة طارئة أو نتيجة لخداع حسي أو هلوسة أو هذيان hallucination ، بينما كان عند البعض الآخر شيئاً ملازماً لحالات الهمسية .

و « نولدكه » الذي نال في الغرب اليوم درجة جعلته يعرف هناك كمفسر للقرآن يرى أن الوحي كان نتيجة حالات عصبية حين تنتهي يحدث الوهم ، ويحدث ما يتبع ذلك من إلهام .

أما « وليم ميور » - الذي يعد مؤرخ الإسلام - فيكتب أن الرسول ﷺ قد انتابه الشكوك والشبهات فيما يصله من إلهام وفي هدفه النبوى ، وهذا ظل لفترة طويلة حائراً وبعد فترة طويلة أخرى ، وحين تأكد عن طريق عامل من العوامل الخارجية أنه نسي بدأ مهمته في تبليغ ونشر الإسلام ، وقد خرج هذا المستشرق سابق الذكر نتيجة لتفسيره الخاطئ لبعض الروايات وعجزه عن فهمها فهما صحيحاً بالقول بأن السبب في ذلك كان « الطعام » الذي يأكله الرسول .

وقد كشف عدد من المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة الستار عن حقيقة ما ادعاه هذا المستشرق المذكور من مهارة بالعربية - فقد كان ضعيفاً ، وكان يمتع باللثث والتفكير الفج المعوج وكان أصيلاً في عداوته وحقده على الإسلام .

وعلى الرغم من هذا فقد قام بعض مستشرقين القرنين التاسع عشر والعشرين بفرض جميع الأفكار والنظريات الفجة - والتي تقول بأن الوحي كان مجرد وهم وادعاء كاذب . أو أنه كان حالة من حالات الغيبوبة الطارئة أو هزة من هزات الأعصاب إلى غير ذلك .

والسبب في رفضهم لها هو عدم إمكانية إثباتها عن طريق مصادر التاريخ الإسلامي ، كما أنها لا تبدو معقوله في ضوء العقل والمنهج العلمي ونمو المعرفة الصحيحة .

وقد اعترف كثير من المستشرقين بصدق رسول الله ﷺ ، وأنه رسول

صادق مثله مثل الأنبياء السابقين ، وأن الوحي كان ينزل عليه من عند الله القدس . ومع ذلك فما زالت العقيدة المسيطرة على الغالبية العظمى من هؤلاء المستشرقين هي أن الوحي الرباني الذي نشاهده اليوم في صورة القرآن الكريم المكتوب هو في الحقيقة من صنع ذهن محمد ومهارة عقله . وأنه قد استفاد في ذلك بالتأثيرات المسيحية في منطقة الشام ، واستفاد بتعليمات الإنجيل والتوراة .

وما أ难怪 هذا الأمر ، وما أغرب أن يقول المؤرخون النصارى : إن القرآن مأخذ عن تعليمات عيسى عليه السلام ، بينما يرى المؤرخون والمفكرون اليهود أنه استفاد من تعليم موسى ، إلا أن الأعجب من هذا وذاك أن المؤرخين والمفكرين المسيحيين واليهود يغضون أنظارهم تماماً عن أن يعلموا أو يظهروا هذه الحقيقة فيما يتعلق بالقرآن الكريم وهي أن القرآن الكريم جاء مصدقاً ومكملاً للتعليمات الإلهية الصحيحة الموجودة في التوراة والإنجيل والصحف السماوية الأخرى فهو لم يرفضها ولم ينسخها ابتداءً . وإذا كان للمستشرقين وأتباعهم أن يفهموا ويقرروا الحقيقة القائلة بأن الإسلام دين أزلى وأبدى نزل من عند الله الرحيم هداية البشرية منذ زمان آدم عليه السلام . وقد ارتقى الدين مع رق العقل والفهم الإنساني ، في أزمنة مختلفة حيث أرسل الله أنبياءه ورسله . واكتمل الدين من عند الله ببعثة محمد عليه السلام ، ليصبح الإسلام هو الدين الإلهي الوحيد إلى يوم القيمة ... لو آمنوا بهذا الأمر بعد فهمهم له لما ظهرت الشكوك ، ولا الشبهات ، ولا المشكلات ، ولا الألغاز التي أثاروها ، والتي تظهر أن رؤيتهم للإسلام ، لا تقوم على أي أساس موضوعي نابع من فقهه بالإسلام نفسه .

ويجب هنا أن نفهم نقطة أخرى ، وهي أن الشرائع التي تنزلت على جميع الأنبياء السابقين . إنما كانت مناسبة لزمانهم ومتاشية مع ظروف مستواهم الحضاري .

إلا أن الشريعة المحمدية قد اكتملت الآن وهي القانون الإلهي الذي لا يتغير ولا يتبدل في جميع الأزمنة . رغم أن العقائد والأصول الدينية لدين محمد هي التي كانت في زمان الأنبياء الكرام السابقين . فعقائد التوحيد الإلهي والرسالة ونبيو الرسل ، والآخرة كانت نفسها تمثل الأصول الشاملة للديانات السابقة ، وهذا هو السبب في أن المنصفين والمحققين والمعاصرين الذين عرفوا للرسول حقه ، حين سمعوا عن الرسالة الإلهية اعتبروها على الفور ميراثاً لأنبيائهم الكرام ، فقبلوها وآمنوا بها . وتصرح المصادر الإسلامية أن ورقة بن نوفل – وهو يمت بصلة القرابة إلى السيدة خديجة وكان عالماً مسيحياً – هذا العالم حين سمع تفصيلات نزول الوحي على رسول الله صاح قائلاً : والله إن هذا هو الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام ١١

والنجاشي إمبراطور الحبشة المسيحي حين سمع خطاب جعفر بن أبي طالب مثل المهاجرين المسلمين لم يصدق فقط برسالة محمد ﷺ بل إنه حين سمع الآيات القرآنية التي نزلت في سورة مريم في حق عيسى عليه السلام قال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة . وعالم المدينة المنورة اليهودي عبد الله بن سلام اعترف بنبوة الرسول الأكرم من أول لقاء به ، وقرر أن رسالته إنما هي تكميلة ومتتمة لنبوة وشريعة موسى .

وخلال مراحل التاريخ الإسلامي المختلفة يمكن تقديم الأدلة والشاهد التي لا تعد ولا تحصى ، والتي تثبت أن الرسول الأكرم ﷺ هو آخر حلقة من حلقات سلسلة الأنبياء الكرام وهو خاتمهم ١٢ .

ومع أن الأغلبية العظمى من المستشرقين في العصر الحديث جعلوا من نزول الوحي الإلهي على رسول الله محمد ﷺ موضع شك في نظرهم ، إذ لا يمكن بحكم ارتباطهم – أن يقولوا شيئاً يؤيدها علانية ، إلا أنهم راحوا يستفيدون من أصول التاريخ الحديثة فقالوا بأن الوحي والنبوة والرسالة أمور ميتافيزيقية

أى أمور غيبية ، لهذا فهى خارجة عن تجربة الإنسان ومشاهداته ومن هنا فهى تخرج عن دائرة المؤرخ ؛ لأن المؤرخ يصدق أو يرفض الروايات والأنباء المتعلقة بالواقع الحسي والتجارب الواقعية ، أما نزول الوحي فهو تجربة يمر بها النبي فقط ، وهذا فلا يمكن لشخص آخر أن يصدقها أو يرفضها ، ولهذا يجب على المؤرخين أن يتوقفوا عندها !!.

ويرى المستشرق المعاصر المشهور بموله الإسلامية وهو « مونتجمرى وات » أن المؤرخ لا يستطيع أن يقول إنه كان وحيا إلهيا بحق ؛ إذ إن الوحي أمر يخرج عن دائرة بحث المؤرخ .

وطبقا لأصول البحث التاريخي الحديثة ، فليس من عمل المؤرخ أن ينكر نزول الوحي الإلهي أو أن يقره ، وليس من شأنه أن يصدقه أو يرفضه ، لأن هذا يخرج عن دائرة عمله ، ولكن يجب - مع ذلك - أن نسلم أيضا بهذه الحقيقة وهي أن التصديق بنبوة رسول ورسالته إنما يكون قائما على مطالعة شخصية الرسول وسلوكه بعد إعلانه النبوة والرسالة ، وبناء على تحليل أو نقد للرسالة التي يقدمها . وعلى هذه الأسس يقوم المؤمنون بهؤلاء الرسل أو الأنبياء دائمًا بالاعتراف بنبوة ورسالة أنبيائهم . وصحيح أيضا أن هذه التجربة الميتافيزيقية التي يطلق عليها الوحي لا يمر بها أحد آخر سوى النبي . ولكن لو أن هناك شهادات على مروره بهذه التجربة ، ولو شهد من شاهدوا هذه التجربة بعيونهم ، حينئذ يصبح الأمر واقعة تاريخية على المؤرخ واجب الاعتراف بها ، ولو قام عدد من الأفراد أو جماعات من جماعته بتصديقه تصديقا كاملا ، فإن هذه أيضا تعد واقعة تاريخية تؤيدها التجربة الروحانية التي سبقت التأييد وعلى المؤرخ أيضا أن يعترف بها .

وطبقا لأصول البحث يمكن أن نرى شهادات المعاصرين فيما يتعلق بنزول الوحي الإلهي على محمد عليه السلام ونرى كم وصلت درجة اعترافهم بعزم

شخصيته ، وكم صدقوا بكل يقين جوانب رسالته . ويفهم من تحليلنا للمصادر أن هذا الأمر تجاوز الحد تواترا من ناحية الشهادة التاريخية ، فهناك جم غفير من المعاصرين يشهدون بكل الحق على صدق رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزول الوحي عليه ، وعظمة شخصيته .

وإذا ما تركنا هؤلاء وتركنا مؤيديه جانبا فإن معارضيه أيضا قد اعترفوا برسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رغم أنهم « يؤمنون به بقلوبهم وينكرونه بآلسفهم » . ثم هناك حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها ، وهي أنه بعد تبليغه لدين الله لمدة ٢٣ سنة عرف جميع أهل شبه الجزيرة العربية تقريبا حق الرسالة التي قدمها لهم ، واعترفوا وفهموا وأمنوا بالكلام المنزل من عند الله على رسوله ، وأمنوا تماما بأنه رسول الله وأن القرآن كلام من عند الله وأنه وحي أُوحى إليه . وهذه أكبر حقيقة تاريخية على نبوته وعلى رسالته ، وهي شهادة خالصة على ذلك يجب على كل مؤرخ أن يعترف بها ، ولا يمكن لأحد أن يُنكرها إلا إذا كان متغصبا بعيدا عن الأصول والأخلاق الإنسانية والمنهج العلمي المحايد .

تعاليم القرآن الكريم :

وكما يقوم المستشرقون وأتباعهم من المؤرخين الجدد بتوجيه النقد المغرض بعيد عن أصول التاريخ إلى الوحي الإلهي ونزوله - يقومون أيضا بتوجيه اعترافات وإلصاق شبهات بتعاليم القرآن الكريم وتدوينه ، ومن أهم الاعترافات التي يوجهونها إلى تعاليم القرآن الكريم . بعض الاعترافات التي يمكن أن تلتبس عليهم والتي تتعلق بالظروف المكية التي نزل الوحي يعالجها مواكبا ظروف البيئة مثل تعليمات الإنفاق والسخاء والنجد وغيرها^(١) ، إلا أن البعض الآخر من اعترافاتهم مما يتعلق بالأحكام السياسية فهي بلا شك

(١) فكأنهم يرون أن القرآن استجابة للبيئة العربية وتحدياتها فقط ١١

اعتراضات لا محل لها على الإطلاق ، وترجع هذه الاعتراضات إلى قصور في فهم هؤلاء المعارضين أساساً وعدم إدراكهم للسور والآيات المكية والمدنية وعدم فهم أحكامها .

إن مطالعة القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتفاسير والتاريخ الإسلامي توضح أن أحكام القرآن الكريم كانت تنزل طبقاً لمستلزمات الوقت الحاضر ، وضرورات المجتمع المسلم ، وقد امتدت هذه السلسلة عبر فترة طويلة ووصلت إلى ربع القرن تقريباً .

ونزول الوحي تدريجياً كما هو معروف من القرآن الكريم إنما كان لحكمة خفية ، فقد كان القرآن هادياً للأمة الإسلامية آنذاك ، ولم يكن لينزل مرة واحدة . فلا تستطيع الأمة أن تحمله . وكان هذا التقدير الإلهي قاصياً بأن تتطور جميع الهيئات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية طبقاً لمستلزمات العصر ، وهذا الأمر في حد ذاته يحمل بين طياته إثبات صدق الرسالة والنبوة الحمدية ، ولو أنزل القرآن الكريم دفعة واحدة لكان من الممكن ألا يكون هناك من يشهد على نزوله ، وإن وجدوا فإنهم سيكونون قلة ، فخلال ربع القرن المذكور شاهد الآلاف من الناس بعيونهم وسمعوا بأذانهم القرآن ينزل على رسول الله ، وليس هذا فقط بل إن نزول الأحكام الإلهية طبقاً لمستلزمات الوقت والزمان كان أمراً مشاهداً . وما أورده المستشرقون حول عدم موافقتهم على ظروف بعض تعاليم القرآن ، إنما هو أمر يرجع أصلاً لقلة مطالعاتهم وقصور فهمهم ، وإلا فإن القرآن الكريم ، كان مطابقاً تماماً لظروف حياة المسلمين ، وهو بالإضافة إلى ذلك يوضح طريق الهدى للبشرية كلها حتى يوم القيمة .

تدوين القرآن :

فيما يتعلق بتدوين القرآن الكريم ، فطبقاً للروايات الإسلامية ، تم ذلك بطريقتين طبقتا في العهد النبوي .

الأول بعد نزول الوحي ، إذ لم تحفظ الآيات المنزلة بتمامها في قلب النبي فقط ، بل قام عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتعليم صحابته ما أنزل عليه ، وتلاوته ، وتحفيظه لهم ، وهناك حقيقة مهمة وشيقة وهي أنه - علاوة على المسلمين والمؤمنين - فإن أعداء الإسلام أيضا قد حفظوا الكثير من آيات القرآن ، ويُعرف من الروايات أن مشركي مكة كانوا يذهبون خفية فيستمعون إلى تلاوة الرسول للقرآن في الصلوات ، ثم إن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتلو القرآن الكريم أثناء تبليغه للدين الحنيف في أوقات عديدة مستشهادا بها في الموضع المناسب ، وكان هذا هو الحال بالنسبة للصحابة أيضا ؛ إذ تصادفنا في كتب التاريخ أكثر من واقعة تأثر بها الكفار بعد سماعهم لتلاوة أبي بكر الصديق وغيره للقرآن الكريم .

والطريقة الثانية أنه منذ العصر المكي الأول قام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهمة حفظ القرآن الكريم مكتوبا . ويفهم من روايات التاريخ الإسلامي المتعددة أن عددا من الصحابة الكرام في مكة المكرمة قد كلفوا بهمة كتابة القرآن الكريم . وهذا صحيح وتعترف به المصادر والمراجع الإسلامية ، وتوضح أيضا أن القرآن الكريم لم يكن مرتبا في صورة كتاب في العهد النبوى ، بل وُجد مكتوبا على أشياء متعددة و مختلفة إلا أن الحقيقة التاريخية التي لا يمكن لأحد أن ينكرها هي أن القرآن الكريم قد حفظ مكتوبا داخل قفّاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإضافة إلى أنه حفظ في قفّاد وعقل مئات بلآلاف من الحفاظ . وهذه أيضا حقيقة أو مسلمة تاريخية . إذ إن عددا من كتاب الصحابة كان كل منهم قد أعد صحيفة في العهد النبوى كتب فيها معظم السور وهكذا ، وبالنسبة لقضية تدوين القرآن الكريم نقول بأن القرآن كله من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، كما هو موجود اليوم في شكل المصحف المتداول هو بذاته ما حفظ في ذاكرة الصحابة ، وما كتب في صحائفهم ، وعلى أشياء متعددة ومتنوعة .

ويشير المستشرقون عامة ، والمعاندون الجدد خاصة هذا الاتهام القائل بأن تدوين القرآن كان في العهد العثماني (أى على عهد عثمان بن عفان) رغم أن جميع هؤلاء المؤرخين والمؤلفين لا ينكرون الشواهد التاريخية المذكورة سابقا ، والتي تشهد على تدوين القرآن الكريم في العهد النبوى ، بل إنهم ينكرون أيضا الحقيقة القائلة بأنه في العهد الصديقى كان القرآن الكريم قد رُتب في شكل مصحف .

وقد ثبت ثبوتاً متواتراً أنه بناء على طلب عمر بن الخطاب فإن الخليفة الأول أبا بكر الصديق كون جماعة و مجلساً من الصحابة الكرام ، كان على رأسهم حافظ القرآن و كاتبه الشهيد زيد بن ثابت الخزرجي ، وقام هذا المجلس بجمع جميع السور المكتوبة لدى الصحابة الكرام و دوّنها في شكل كتاب ، و كان هذا هو أول مصحف ، وهو الذي عُرف باسم المصحف الصديقى أو المصحف الأعظم ، وبعد استشهاد عمر الفاروق كان هذا المصحف محفوظا لدى أم المؤمنين السيدة حفصة ، وقام عثمان رضى الله عنه بإعداد نسخ من هذا المصحف الصديقى ، وأرسلها إلى أمصار وديار الدولة الإسلامية حتى تكون كتابة القرآن و نطقه وقراءته ماضية على نسق واحد ومستوى واحد ، وألا يوجد فيها أى نوع من أنواع الاختلافات ، أما ماسخو التاريخ الإسلامي فقد أنكروا جميع هذه الحقائق البدئية وقاموا بترويج أفكار لا أساس لها من الصحة ب مجرد أنهم من القائلين بالتحليل والنقد التاريخي في هذا الموضوع ، و هدفهم المسبق بالطبع هنا هو أساساً صد الناس عن كتاب الله ، فإذا لم ينجحوا في هدفهم هذا فليعملوا بعد ذلك على ابتلاء الناس - على الأقل - بسوء الفهم ، وبلبلة الأفكار ، وغرس الشك والشهابات في أذهان المسلمين الأميين أو قليلي التعليم وإقناعهم بأن الكلام الإلهي لم يكن محفوظا ليصدوا الناس بذلك عن قبول الحق .

وهذا هو الواقع يشهد أنهم لم يستطيعوا أن يطفئوا نور الله بأفواهم ، فكل من يقرأ القرآن الكريم بذهن مفتوح يرى نفسه مجبراً على الاعتراف بأنه كلام من عند الله سواء اعترف بذلك أو لم يعترف .

تطور الدعوة الإسلامية في العهد المكي :

قدم ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة تحليلاً لتطور انتشار الإسلام في مكة المكرمة ، وطبقاً لما أورده فإن المسلمين الأربع الأوائل كانوا : السيدة خديجة بنت خويلد الأسدى ، وأبا بكر الصديق التميمي ، وزيد بن حارثة الكلبي ، وعلى بن أبي طالب الهاشمى ، وقد أثبت ابن إسحاق بعد ذلك قائمة تضمنت أسماء الخمسين الذين أسلموا في الدور الأول بالترتيب ، وهم الذين شرفوا بالإسلام في بداية الدعوة الإسلامية ، وطبقاً لما أوردته المصادر ، فقد انتشر الإسلام خارج مكة نتيجة لجهوده عليه وصحابته من المبلغين ، وبدأت القبائل وأفرادها الذين يقيمون قريباً من مكة تفدي عليها ، كما بدأ نشر الإسلام في المناطق المختلفة بفضل جهود المبلغين الذين يتبعون إلى تلك المناطق ذاتها وهكذا قام المبلغون المحليون بنشاط مشهود داخل مناطقهم في سبيل نشر الإسلام .

ولو قمنا بتحليل الوضع القبلي والأسرى والاجتماعي وبخاصة للسابقين الأولين من مسلمي مكة لوجدنا أنفسنا أمام حقيقة واضحة تجلت في أنه كان من بينهم أناس من جميع طبقات المجتمع المكي ، ومن بينهم أفراد يتبعون إلى أغبياء مكة المكرمة ورؤسائها ، ومع أن عددهم كان قليلاً نسبياً فإن أكثرهم كان من شباب قريش الذين كانوا يتبعون إلى أشراف بطون قريش . وفي مقابل هذا دخل في الإسلام بعض الفقراء وكان معظمهم من الموالى والغلمان .

ومن العجيب أن ينادى بعض المؤرخين المغرضين بأن جميع المسلمين الأوائل كانوا يتبعون إلى طبقات فقيرة معوزة .

ومن العجيب أيضاً أن يقبل بعض المؤرخين المسلمين هذا الرأي القائم على التحليل الوهمي والبعيد كل البعد عن الواقع التاريخي ، بل بدأوا يضيفون قولهم : إن من قبلوا دعوة الأنبياء وفي البداية كانوا هم الضعفاء الفقراء وهذا يصدق على الأنبياء السابقين إلى حد ما كما يتضح من بعض آيات القرآن الكريم ، مثلاً يصدق أيضاً من خلال مصادرنا حين تشير بعض الروايات والتعليقـات العامة إلى أن المسلمين الأوائل كانوا يتـمـون إلى طبقات ضعـيفـة ، ولكن هذا التحلـيل غير صحيح على إطـلاقـه .

والحقيقة أن الذين قدموا نظرية أن المسلمين الأوائل كانوا يتـمـون إلى طبقات ضعـيفـة معدـمة ، كانوا يـرمـون من وراء ذلك إلى هـدـفـ آخر ، وكانوا يـريـدون الخـروـجـ بـنتـيـجةـ منـطـقـيةـ عنـ طـرـيقـ هـذـاـ الـهـدـفـ البعـيدـ ، وـقدـ وـصـلـواـ إـلـىـ مـرـامـهـمـ فيماـ بـعـدـ وـتـمـلـ هـذـاـ فـيـ أـنـهـ لـاـ كـانـ مـسـلـمـوـ الـعـهـدـ الـمـكـىـ فـقـرـاءـ مـعـدـمـينـ مـنـ هـنـاـ اـضـطـرـواـ إـلـىـ الـهـجـرـةـ مـنـ عـالـمـ الـفـقـرـ هـذـاـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ الـمـنـوـرـةـ ، حـيـثـ كـانـ الـحـالـةـ الـاـقـتـصـادـيـةـ هـنـاـكـ تـخـتـلـفـ عـمـاـ كـانـواـ عـلـيـهـ قـبـلـاـ فـيـ مـكـةـ ، وـهـذـاـ تـحـمـلـ الـمـهـاجـرـوـنـ الـمـسـلـمـوـنـ مـشـقـةـ الـهـجـرـةـ الشـدـيـدـةـ وـقـدـ حـاـوـلـ هـؤـلـاءـ الـمـؤـرـخـوـنـ أـنـ يـبـتـوـاـ فـيـ الـأـذـهـانـ أـنـ نـظـرـةـ هـؤـلـاءـ الـمـسـلـمـوـنـ الـأـوـاـلـ مـاـ كـانـواـ فـيـهـ مـنـ فـقـرـ وـعـسـرـ . وـهـكـذـاـ قـالـوـاـ بـأـنـ الـمـسـلـمـوـنـ ، طـبـقاـ لـعـادـاتـ الـعـرـبـ وـدـسـتـورـهـ ، بـدـأـوـاـ سـلـسـلـةـ مـنـ إـغـارـةـ وـهـجـومـ عـلـىـ الـقـوـافـلـ الـتـجـارـيـةـ وـالـقـرـيـةـ وـنـتـيـجـةـ هـذـاـ الـهـجـومـ وـهـذـهـ إـغـارـةـ بـدـأـتـ سـلـسـلـةـ الـغـزـوـاتـ وـالـسـرـايـاـ بـيـنـ الـمـسـلـمـوـنـ وـغـيـرـ الـمـسـلـمـوـنـ .

ولـمـ يـفـهـمـ الـمـؤـرـخـوـنـ الـمـسـلـمـوـنـ مـاـ تـضـمـرـهـ هـذـهـ الـخـطـطـ وـالـأـهـدـافـ الـخـطـرـةـ بـعـيـدةـ الـمـدىـ لـلـمـؤـرـخـيـنـ أـعـدـاءـ إـلـاسـلـامـ وـالـكـائـدـيـنـ لـهـ ، وـهـذـاـ أـخـذـوـاـ يـحـلـلـوـنـ وـيـدـرـسـوـنـ أـقـوـالـ هـؤـلـاءـ الـمـؤـرـخـيـنـ ثـمـ كـانـ مـنـ الـمـسـتـلـزـمـاتـ الـخـتـمـيـةـ لـدـخـولـ تـأـثـيـرـاتـ غـيـرـ إـسـلـامـيـةـ عـلـىـ الـمـسـلـمـوـنـ ، أـنـ اـعـتـبـرـ الـمـسـلـمـوـنـ الـفـقـرـ وـالـفـاقـةـ أـمـوـرـاـ

قريبة من الروح الإسلامية ، بينما الغنى والثروة ، إن لم يكونوا ضد الإسلام ، إلا أنها منافيان للنقوى والورع - على الأقل - ومن هنا قبلوا هذه النظرية التي روجها المؤرخون المغرضون بينما هي نظرية خاطئة تماماً من الناحية التاريخية . فالإسلام ليس ضد الغنى ، والحضارة الإسلامية ليست حضارة الفقر والفقراء !!!

معارضة الإسلام :

كما أن رصد سلوك القبائل والأسر المختلفة في مكة تجاه الإسلام كان رصداً غير تاريخي وغير دقيق وخارجاً من العمق في أساس هذا الأمر ، بل كان قائماً على عنصر العصبية القبلية والفخر الذاتي ، وقد ذكر المؤرخون المعارضون لبني أمية أن بني أمية كانوا أكثر الناس معارضة للإسلام لأنهم كانوا المنافسين التقليديين لبني هاشم ، وقد خدع بعض مؤرخينا المسلمين بهذه النظرية .

ومن ناحية أخرى عرض بعض المستشرقين لنظرية عجيبة شديدة لكنها مضللة ، وتقول هذه النظرية إن بني هاشم كانوا من الناحية الاقتصادية ضعفاء ولما كان رسول الله ﷺ قد قام بحركته الدينية ضد أكابر تجار مكة المكرمة فإن بني هاشم ساندته وعضده ، وهاتان النظريتان خاطئتان بصورة قاطعة ، وقد روجتا من أجل تشويه التاريخ الإسلامي عن طريق خطط مقصودة متعمدة .

أما بالنسبة لقضية معارضة بني أمية للإسلام فهي من وجهة النظر التاريخية خطأ مؤكد ، وذلك لأن من بين المسلمين السابقين الأوائل أفراداً عديدين ينتمون إلى فروع بني أمية المختلفة ، وفي العهد الملكي قبل عدد من أفراد بني أمية الإسلام ، من بينهم عثمان بن عفان الأموي ، وخالد بن العاص وأنجوكه عمرو ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعدد آخر .

أما فيما يتعلق بمساندة بنى هاشم للدعوة ، فمن المعروف أن بعض الأفراد قاموا بمساندة بينما البعض الآخر بالمعارضة ، وأكثراهم أعرض عن قبول الإسلام ، ويز من بين المعارضين أبو هلب بن عبد المطلب ، وسفيان بن الحارث ، ومن بين من قبل الإسلام على بن أبي طالب وأخوه جعفر ، فضلاً عن عدة أشخاص آخرين .

أما فيما يتعلق بمساندة رسول الله ﷺ فقد كان لحمة أبي طالب والعصبية القبلية دورها وأثرها إذ إن أبي قبيلة في المجتمع المكي لم تكن لتترك أحد أفرادها بدون حماية أو رعاية وإلا أصابها العار ، ومنعت العزة والفاخر . وهكذا فإن مساندة أبي طالب لم تكن مساندة للإسلام أو المسلمين وإنما كانت لأحد أفراد القبيلة أبي محمد بن عبد الله ... أبي لحضة العصبية القبلية والحب الشخصي وليس لمبدأ الإسلام !!

ومن هذا المنطلق يجب أن نلاحظ أن معارضه الإسلام أو مساندته لم تكن قائمة على أساس قبلية ، إذ إن أعظم نجاح حقيقته الحركة الإسلامية أنها اضمت بداخلها جميع أفراد القبائل والأسر منذ بداية الدعوة ، فمن ساند الإسلام ودافع عنه دافع عنه لأنه هو الإسلام ، الدين الحق سواء كان قد فهمه بطريقة جيدة أو لم يفهم ما بداخل الدين من أمور عقدية أو اجتماعية أو سياسية ، إلا أنه بالضرورة تأثر بتعليماته وعقائده الأساسية .

هذا بينما يقف الذي عارض الإسلام إنما عارضه وخالفه لأن الإسلام دين ومذهب سواء كان هذا في جانب مصلحته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أم لا .

ومن الممكن أن يكون البعض قد عارض الإسلام بناء على عصبية قبلية ، كما تصادفنا رواية في حق أبي جهل المخزومي ، إلا أن أبي قبيلة أو أسرة لم تخالف رسول الله ﷺ مجرد أنه كان من بنى هاشم أو من قريش . لأنه إن خالف

أَخْ مُحَمَّدًا فَإِنْ أَخَّا آخَرْ لَهُ يَقُومُ بِالْدِفَاعِ عَنْ مُحَمَّدٍ وَحْمَابِهِ بَلْ وَافْتَدَاهُ . مَثُلَّمَا هُوَ الْحَالُ بِالسَّيْبَةِ لِأَخِي أَنَّى جَهْلُ الْمُخْرُومِيِّ لِأَمَّهُ عِيَاشُ بْنُ أَنَّى رِبِيعَةِ الْمُخْرُومِيِّ الَّذِي أَسْلَمَ ، وَمِنْ بَنِي مُخْرُومَ أَيْضًا أَعْلَنَ الْأَرْقَمَ بْنَ أَنَّى الْأَرْقَمَ وَمَعْهُ عَدْدٌ آخَرُ إِلَسْلَامٍ وَكَانَ مِنْ بَنِي الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِ .

وَالْأَصْلُ أَنَّ مَا حَدَثَ بَيْنَ الْأَسْرَ مِنْ فِرْقَةِ إِنَّمَا كَانَ سَبِيلَ إِعْلَانِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ مِنَ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ لِإِسْلَامِهِمْ ، فَكَانَ الْأَبْنَى مُسْلِمًا وَالْأَبْ كَافِرًا أَوْ الْعَكْسُ ، أَوْ يَصْبِحُ الْزَوْجُ مُسْلِمًا وَتَصْرِفُ الْزَوْجَةُ عَلَى الْبَقَاءِ فِي الْكُفَرِ أَوْ الْعَكْسِ ، وَقَدْ يَكُونُ السَّيِّدُ كَافِرًا وَغَلَامُهُ يَعْلَمُ إِلَسْلَامًا أَوْ الْعَكْسُ ، وَلَقَدْ كَانَ شَكَارِيُّ شِيَوخُ وَأَكَابِرُ مَكَّةَ - الَّذِينَ عَاشُوا عَلَى التَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ وَالْمُشَكِّلَةِ الْعَتِيقَةِ - مِنَ إِلَسْلَامٍ قَائِمَةً عَلَى أَنَّ إِلَسْلَامًا أَظْهَرَ فِيهِمْ خَلْلًا اِجْتِمَاعِيًّا ، فَهُوَ يَفْرَقُ بَيْنَ الدَّمْ وَالْدَّمْ أَيْ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ . وَهُنَّا فَالنَّظَرِيَّةُ الْقَائِلَةُ بِأَنَّ بَنِي أُمِّيَّةَ كَانُوا مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ مُخَالِفَةً لِإِلَسْلَامِ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ فِي النَّهَايَةِ نَظَرِيَّةً لَا تَؤْيِدُهَا أَدَلَّةٌ قَوِيَّةٌ بَلْ هِيَ نَظَرِيَّةٌ باطِلَّةٌ ، وَلَكِنْ كَانَ أَبُو سَفِيَّانَ قَدْ قَادَ كَثِيرًا مِنَ الْمَعَارِكِ ضِدَّ إِلَسْلَامٍ - قَبْلَ إِسْلَامِهِ - فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكُ لِعَصِيَّةٍ قَبْلِيَّةٍ ، بَلْ كَانَ قِيَادَةً أَنَّى سَفِيَّانَ لِجَيْشِ مَكَّةَ فِي جَمِيعِ مَعَارِكِ قَرِيشٍ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ لِأَنَّهُ كَانَ قَائِدًا كَبِيرًا لِقَرِيشٍ عَامَةً وَلَيْسَ كَفِرَدُ مِنْ أَفْرَادِ بَنِي هَاشِمٍ ، أَوْ لِأَنَّهُ مَعَارِضٌ لِإِلَسْلَامِ بِصَفَّةِ قَبْلِيَّةٍ .

لَقَدْ كَانَ وَضِعَا فَرَضَهُ عَلَيْهِ مَنْصِبَهُ ؛ إِذَا كَانَ يَتَولَّ مَسْؤُلِيَّةَ الْقِيَادَةِ دَاخِلَّ أَشْرَافِ قَرِيشٍ لِكَفَاعَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَكَانَ جَيْشُهُ مَكْوُنًا مِنْ سَائِرِ قَرِيشٍ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا !!...

تَعْذِيبُ الْمُسْلِمِينَ :

حَاوَلَ الْمُسْتَشْرِقُونَ مِنْ نَاحِيَّةِ أُخْرَى مَسْخَ بَابِ مَضَىءٍ فِي التَّارِيخِ إِلَسْلَامِيِّ يَتَعَلَّقُ بِالْتَّعْذِيبِ الَّذِي تَعَرَّضَ لَهُ مُسْلِمُو مَكَّةَ وَذَلِكَ حَتَّى يَرُوْجُ هُؤُلَاءِ

المستشرقون لفاسدهم وخططهم الخبيثة الرامية إلى بلبلة أنفكار المسلمين ، فقد قام عدد منهم يدعى أن إيزاده الذى وقع بال المسلمين من جانب قريش إنما كان قاصراً على السخرية والتعریض والهجوم بالكلام والشتائم ، وأن التعذيب الجسmani كان شيئاً لا يذكر ، والروايات التي تصادفنا فيما يتعلق بتعذيب المسلمين في المصادر الإسلامية ، توضح لنا مبالغة المؤرخين المسلمين ، مما دفع المؤرخين الآخرين إلى رفض مثل هذه الروايات بسبب تلك المبالغة .

والحقيقة أن إيزاده مسلمي مكة على يد قريش يُعد باباً مضيئاً في التاريخ الإسلامي ، وهو دليل ثابت على غيرتنا وحميتنا الدينية ، ويعرف من الروايات الموثقة أن عدداً من الصحابة وبخاصة الضعفاء منهم كانوا بلا حول ولا قوة وقد تعرضوا لظلم بحطم الصخر ويهز الجبال ، وقد مرّ بمراحل التعذيب تلك صحابة كرام من مثل بلال بن رباح الحبشي ، وخيّاب بن الأرت التميمي ، وعمران بن ياسر ، ووالديه ياسر وسمية ، وعدد من الغلمان والإماء من مثل زنيرة ، وأم عبيس وغيرها تعرض بعضهم لحرّ الظهيرة . وقد وضعوا على صدورهم الأحجار كاللؤلؤ . وتعرض بعضهم للكى بالنار في مواضع عديدة في أجسامهم ، وتعرض بعضهم للضرب على الرأس حتى تفجرت الدماء منها ، هذا بالنسبة لأولئك الذين لم يكن لهم حول ولا قوة .

هذا كما تعرض رجال الأسر المعروفة للإيزاده والتعذيب على يد أقاربهم وذويهم . ومن تعرض للتعذيب عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعيد ابن يزيد العدوى ، وعدد كبير من السادة والسيدات الذين مروا بمراحل عديدة من العذاب .

والرسول ﷺ نفسه لم يسلم من أنواع الإيزاده والتعرض لشخصه الكريم وأكبر دليل على الظلم الذي حاصل ب المسلمين العهد المكى من مظالم قريش هو أن أكثر من مائة مسلم تركوا وطنهم وديارهم للنجاة من قهر قريش وظلمهم ،

ولجأوا إلى الحبشة واتخذوها مهجرا لهم .

ثم إن مامر به الرسول ﷺ وصحابته الكرام من جراء محاصرة شعب بنى هاشم ومقاطعتهم لهم مقاطعة اجتماعية إنما كانت مأساة استمرت مدة طويلة ، وهي إن دلت فإنما تدل على قدرة المسلمين على الصبر وضبط النفس . وفي سفر الطائف أثبت الرسول ﷺ قدرته على الصبر حين أخذ المشركين يقذفونه بالحجارة حتى نزل الدم من رأسه المبارك .

هذه التضحيات هي باب يضيء على درب الحركة الإسلامية ، وهي مأثرة من التضحيات التي قدمها المسلمون الذين رفعوا لواء الإسلام ، ولا يعرف حق هذه التضحيات غير خالق العالم جل وعلا قال الله تعالى في سورة التوبية آية ١٠٠ : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَأْخُذُونَ رَضْيَ اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَ اللَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ الْخَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفُورُ الْعَظِيمُ ﴾ صدق الله العظيم .

إلا أن أعداء الإسلام من المؤرخين يختهون داخل خيمة التحقيق والتحليل ، فيحاولون الإقلال من قيمة هذه التضحيات التي لا مثيل لها ، ويرجعونها إلى مجرد عصبية دينية أو قبالية والمؤرخون النصارى إنما يقللون - بطريقة شعورية أو غير شعورية - من تضحيات مسلمي العهد المكي عن قصد أو عن غير قصد حتى يمكنهم إيجاد مبرر لفرار بل وغدر حواري المسيح عليه السلام وقت الشدة والمحنة ، أما المؤلفون اليهود فهم عن طريق هذا ي يريدون توجيه الأنظار بعيداً عما حدث من حركات غير أخلاقية في صحراء سيناء من المتأمرين ومثيري الفتنة على سيدنا موسى عليه السلام .

وطبقاً للروايات الإسلامية ، وطبقاً للترتيب والتطور التاريخي للأحداث فإنه يثبت أيضاً أن قريشاً في مكة قاموا بتضييق الخناق ، وحصار المسلمين فضيقوا على المسلمين سبل الحياة حتى اضطروا في النهاية إلى الهجرة من أرضهم

التي أفواها ومن وطنهم الذي عاشوا فيه ليهاجروا بلا متابع إلى أرض أخرى
ومدينة أخرى لم يألفوا العيش فيها .

وأهم أسباب هجرة المسلمين إلى المدينة إنما تلخص في إيماء قريش . هذا
بينما ترى طبقة من المستشرقين أن الهجرة كانت للظلم الذي تعرض له المسلمين
ويريد هؤلاء المستشرقون أن يثبتوا أن معارضة قريش لرسول الله وخلافها معه
إنما كان نتيجة للأسباب الاقتصادية أكثر من كونه خلافاً للأسباب الدينية .
وتحدف هذه الطبقة من المستشرقين إلى أن يجعل الحركة الإسلامية حركة قائمة
على ردود فعل اقتصادية ومعاشية ، وأن تطعن في مكانة الحركة الدينية أو يجعل
العامل الديني عاملاً ثانوياً .

إلا أن الظلم الأكثر من هذا قام به أولئك الناس الذين قالوا في نفس واحد ،
بأن الرسول ﷺ كان قائداً وزعيمًا دينياً وأفروا أن الحركة الإسلامية كانت
حركة اقتصادية واجتماعية أكثر من كونها حركة دينية ، وصحيحة أن حركته
حملت بداخلها عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية . وكان هذا أمراً ضرورياً ،
إلا أنها كانت ذات توعية دينية مذهبية بالمقام الأول . أما الجوانب الأخرى
كلها فتدرج تحت هذه النوعية وتتفرع منها . وبدون الدين الإسلامي لم تكن
لها مكانة تذكر ، ولنقل إنها كانت ثماراً للحركة الدينية فالأساس كان في الدين
وهي الدين فقط .

قصة إله !!

راج بين المستشرقين موضوع عجيب ، ويتعلق بقصة إله . وقد وردت
قصة إله هذه في المصادر الإسلامية كما يلي :
كان رسول الله ﷺ يقرأ في حرم الكعبة الآيات (٢٠ / ١٩)^(١) من

(١) يقول تبارك وتعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْأَنْتَوْلَعْزَى وَرَمَّاتَةَ الْثَّالِثَةِ الْأُخْرَى﴾ . المترجم

سورة النجم . ثم قام وسجد لله تعالى سجدة شكر فقام شيطان وقرأ معه فقرة شيطانية خلطها هكذا « تلك الغرائق وإن شفاعتمن لترجي » وتأثر بها الكفار فسجدوا إذ وجدوا أن هذا يعني وجود سبيل للمصالحة بين الإسلام وبين مذاهبهم القديمة . وحين انتشر هذا الخبر بين المسلمين ، بل في نواحي مكة ، أعلن أشراف مكة قبولهم الإسلام .

ويتضح أن المحدثين ونادى الروايات يرون أن هذا الأمر وبخاصة الفقرة الشيطانية وقصة المزج في الآيات القرآنية . كلها روايات غير صحيحة وموضوعة لا أساس لها من الصحة إلا أن المستشرين بهم من طباع ظالمة ونظرة تحليلية خبيثة يقولون إن الفقيرتين لم يأت بهما أى شيطان بل إن رسول الله عليه عليه السلام قام بمجهم عمداً وقصدأ حتى يضع شياطينهم في مكانة قياسية ، فأضافهم على نظام العبادة الإسلامي فقد ضاق بمعارضتهم له . وأصبح على استعداد لأن يجرى معهم مصالحة دينية (نعوذ بالله !!)

إن أى شخص طالع الإسلام مطالعة صحيحة وهو يحمل حسناً وشعوراً تارينا سليماً يعرف جيداً أن رسول الله عليه عليه السلام لم يكن أبداً على استعداد لإجراء أية مصالحة من أدنى درجة مع أحد على أساس أى من العقائد أو الأصول . فما بنا بعقيدة التوحيد التي هي أصل الأصول في الإسلام والتي هي الأساس الرئيسي لدعوته وحركته . وإذا افترضنا - وهو محال - التسليم بدعوى المستشرين هذه فإن هذا يعني إجراء مصالحة وصداقة مع الشرك الصريح ، فأية ضرورة تُقْنَى الآن للإسلام !!

لقد كانت عداوة قريش مكة والمشركين الآخرين من العرب للإسلام قائمة على هذا الأمر ، وهو أن الإسلام لا يدعهم يشركون مع الله أحداً غيره ، وأن يعترفوا بربوبية واحدة هي ربوبية أحكم الحاكمين وحاكميته المطلقة ، وأن ينفدوها ويطيعوا أحکامه جلت قدرته .

والحقيقة أنه عن طريق هذا الهجوم يريد المستشرقون الهجوم على التاريخ الإسلامي من الناحية النظرية ويلاحظ أنه يتضح من نظرياتهم تلك السطحية والتضاد . وعلى الرغم من أنهم لا يمكن أن يهُزُوا بذلك عقيدة المسلمين فإنهم يريدون إدخال الشك في أذهان بعض الناس ، ويريدون أن ينبعوا غير المسلمين من الاتجاه إلى بوابة الإسلام وإلى الدخول في الحق ، وهذا هو الهدف الأساسي لؤلؤة الأعداء . وهو الهدف الذي يجب أن تكون على بيته منه ، وأن نقف يقطين في مواجهته حتى لا نخدع .

الهجرة إلى المدينة المنورة :

أشاع المؤرخون المغرضون أن حالة مسلمي مكة الاقتصادية كانت سيئة ، لهذا خرجن مهاجرين تجاه المدينة لا يملكون مالاً ولا متابعاً .

وقد عرض المستشرقون والمغرضون المغرضون لهاتين الفكرتين طبقاً لخطة محكمة وهدف معين ، وقبل بعض المؤرخين المسلمين ذلك القول دون إعمال للتفكير ، ولم يفكروا بالقطع أن هذا يعنى مؤامرة أعداء الإسلام ، ومن المعروف أن عدداً من مهاجري مكة قد قدموا تصريحات لا مثيل لها ، لقد ترك العديد من المهاجرين أملأاً لهم ومتاعهم خلفهم وهاجروا ، خرجن بأيديهم حالياً تماماً من كل شيء ، وبعضهم قد سلبتهم قريش جميع أموالهم ومتاعهم حين خرجن تاركين مكة ، إلا أن الحقيقة أيضاً تمثل فيما ذكره ابن إسحاق والمغرضون القدماء الآخرون [كتاب السوانح] ويفهم ما كتب هؤلاء أن عدداً من الأسر والأفراد المسلمين قد وفقو في نقل ممتلكاتهم معهم . والمؤرخون المغرضون والخططون ضد الإسلام إنما يحاولون التشهير بسوء حال مهاجري مكة الاقتصادية بالباطل حتى يثبتوا نظرية القائلة بأنهم هاجروا إلى المدينة نظراً لأنهم لم يتحملوا سوء أحواهم المعيشية كأنهم يريدون أن يقولوا : إن أنصار المدينة كانوا سيئي الحال مثلاً بسبب قتالهم معاً . ثم زادوا على ذلك بقولهم إن عدداً كبيراً من المهاجرين قد ورد إلى المدينة حال الوفاض مما مثل

عبئاً ثقيلاً على الحياة الاقتصادية بالمدينة نظراً للفقات قيامهم وإطعامهم . ومضى هذا النظام المؤقت - بطريقة ما - لعدة أيام ، ولكن حين انتهت جميع الوسائل فإنّ رسول الله ﷺ لم يكن أمامه من سبيل سوى أن يتبع طريقة المعيشة القدية للعرب ، وهو استخدام أسلوب الإغارة على القوافل التجارية والإغارة على القرى المجاورة . وطبقاً لادعاءات هؤلاء المستشرقين والمورخين فإنه من هنا بدأت سلسلة الغزوات والسرایا التي استمرت طويلاً والتي كانت تقوم على غنائمها الحياة المدنية كاملة تقريباً !!

وادعاءاتهم هذه خاطئة بلا شك ، فمن الصحيح أن أنصار المدينة قد أظهروا تضحيات مثالية ، فقد استضافوا إخوتهم من المهاجرين في بيوتهم لعدة أشهر ، وتواضعوا أمامهم ، وعاملوهم بكل حب واحترام ، واقسموا معهم أملاكهم ، وأراضيهم ، وحتى بيوتهم التي تفيض عن حاجتهم ، وأشركوهم معهم في التجارة والزراعة ومع ذلك فمن الخطأ القول : إن المهاجرين قد اعتمدوا على ثروة الأنصار وضيافتهم لهم ، ويتبين من الروايات أن جميع تجار مكة ، والحرفيين والعمال من المهاجرين كانوا قد انصرف كل منهم إلى حرفه وعمله ، وبدلأ من أن يحطموا الحياة الاقتصادية للمدينة ويربكواها شاركوا بنصيب في ازدهارها وتطورها . لقد قام كلّ بما يستطيع أن يحسنه من صناعة وتجارة وزراعة .

وهناك موقف مشرف لعبد الرحمن بن عوف الذهري ، فإنه قد شكر مضييفه سعد بن أبي سعيد شكرًا جزيلاً ، وسأله عن الطريق إلى السوق . ومنذ ذلك اليوم بدأ يكسب كثيراً بما له من مهارة في التجارة حتى أنه في أيام قلائلتمكن من أن يتزوج . ومن الصحيح أيضاً أن هناك بعض الأفراد المعسرين الذين كانوا أنفسهم يعيشون حياة عسر في مكة !!

لقد استطاع معظم المهاجرين بعد قدومهم إلى المدينة الاعتماد على أنفسهم

من الناحية الاقتصادية ونجحوا في ذلك تماماً .

المهام الأولى :

طبقاً للنظرية الاقتصادية التي ذكرها المستشرقون والتي أشرنا إليها قبلًا ، وفحواها أن حياة المهاجرين الاقتصادية ، حين لم تصل إلى كيفية تمكنهم من الحياة بطريقة ما ، فإن رسول الله ﷺ سلك أسلوب الإغارة والنهب العربي القديم ، ولهذا جعل نصب عينيه أن يغير أولاً على القوافل التجارية لقريش ، التي كانت تمر بالقرب من المدينة المنورة على طريق التجارة الدولي ، متوجهة إلى الشام شمالاً وإلى مكة جنوباً ، وهكذا وبعد الهجرة بستة أشهر أرسل أول سرية ، وجعل على رأسها عمه حمزة بن عبد المطلب الهاشمي ، وأمرها بالاتجاه إلى طريق التجارة الرئيسي ، إلا أنه لم ينجح في الإغارة على قوافل قريش ، وهكذا أرسل الرسول تباعاً ، ولمدة سنتين سبع مهامات سرايا ، وقد بذل نفسه أربعة منها إلا أنه لم ينل منها غنيمة لكن المهمة الثامنة وقد كانت عند مكان يدعى نخلة ، وكانت بقيادة عبد الله بن جحش وقبل غزوة بدر ، كانت هناك قافلة ضخمة لقريش متوجهة إلى الشام . وقد أراد الرسول أولاً أن يوقفها بالقرب من هذا الطريق . وانتظر عودتها لكنها فاتته . فاضطر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مواجهة الجيش الذي قدم لإنقاذ قوافل قريش القادمة ، وهو ما نتج عنه غزوة بدر .

ولو استخدمنا التحليل والنقد التاريخي ، فإنه فيما يتعلق بالمهام الأولى الثمانية قبل غزوة بدر يفهم من المصادر أنه لا توجد أية شهادة عينية أو رواية واضحة فيما يتعلق بأهداف جميع هذه الغزوات والسرايا يمكن أن يفهم - أو يثبت منها بالدليل أن دوافعها ومحركاتها كانت اقتصادية . ولابد أن يقول بعض كتاب السيرة وبعض المؤرخين المسلمين إن بعض هذه السرايا كانت موجهة ضد قوافل قريش إلا أن تحليل هؤلاء ليس له علاقة بالحقيقة ، فلم يرو عن رسول

الله ﷺ وعن أى مجاهد من المجاهدين وعامة الصحابة الذين اشتركوا في هذه المهام أن هدف هذه المهام كان قافلة من القوافل ؛ ولأن رواتنا وكتاب الأخبار من أهلنا قد وضعوا أمام أعينهم وهم يكتبون خلفية مقاومة قريش في مكة للرسول ومعارضتها للإسلام لهذا ظنوا – وظلوا يظنون – أن كل إجراءات رسول الله هذه كانت بالضرورة موجهة ضد قريش ، بينما لم يكن الأمر كذلك . ويفهم من دراسة وفحص هذه الروايات أن هدف معظم هذه المهام ، وخاصة تلك التي أرسلت إلى مناطق القبائل العربية كان هدفا سياسيا تبليغيا ، فقد كان رسول الله ﷺ يريد أن يعقد معاهدة صداقة وتعاون مشترك مع القبائل العربية المجاورة ، وتم ذلك على عهده ﷺ ، وكما تذكر الروايات فقد عقدت معاهدات تعاون مشترك مع قبائل بني حمزة وأسلم وغفار وغيرها . كل هذا حدث نتيجة لإرسال تلك المهام الأولى التي هدفت إلى تبليغ الإسلام أو إقامة علاقة سياسية بالمفهوم الحديث .

وكان بعض هذه المهام تهدف إلى جمع المعلومات والوقوف على الظروف الجغرافية الإقليمية مثلما يفهم من واقعة « نخلة » ، أما مهمة عسفان فقد كانت إجراءً حربيا خالصا ضد مهاجمين من مكة قاموا بالهجوم على مراعي المدينة ، وأصابوها في المال والأنفس ، واضطرب المسلمون إلى القيام بهذه المهمة . ويجب أن نذكر أن المنازل المختلفة حيث وقعت هذه المهام الأولى كان بينها وبين طريق التجارة مسافة بعيدة ، كما كان قيام المسلمين الموكل إليهم هذه المهام يقع في مناطق محددة ، ولمدة معينة ، ولم يكن هناك تصادم مع القوافل إلا ما يدعو لذلك ، بل لم يكن هناك صدام في معظم الأحيان ، ومامعاً سرية نخلة فإن جميع المهام بدون جدل أو جدال – وكما يقول المستشرقون – عادت بدون أن تتحقق هدفها ؛ فقد كان عدد الجنود المسلمين قليلا ، كما أن بعض الحقائق والقرائن توضح أن دوافع هذه المهام لم يكن

اقتصاديا ، بل كان غير ذلك ، حتى سرية نخلة فقد كانت - طبقا لأوامر رسول الله عليه السلام - لمعرفة الظروف ، والتعرف على أحوال المنطقة ، لا للإغارة والسلب ، ونظرا للظروف التي تغيرت فجأة إذ تم الهجوم على فصيلة من جند المسلمين مما اضطرهم إلى الاستيلاء على القافلة المكية ، إلا أن رسول الله عليه السلام أظهر عدم رضاه عما حدث ، ولم يلمس بيده مال الغنيمة هذا حتى غزوة بدر .

أما المستشركون فإنهما يحملون من خبث اتهموا الرسول الأكرم وال المسلمين ، وخاصة مجاهدي سرية نخلة ، بأنهم قاتلوا في الشهر الحرام ، وبهذا لم يحترموا قدسيته ، إلا أن القرآن الكريم والمصادر الإسلامية قد برأتهم من هذه التهمة التي يرددوها المستشركون .

وإذا كان أنصار المدينة قد فتحوا صدورهم لإخوتهم المهاجرين واستضافوهم في بيوتهم ، وأشركوه معهم في أملاكهم ومتلكاتهم وفي تجارتهم وزراعتهم عن طريق المؤاخاة . فمن أين تظهر قضية الغارة والإغارة ؟ ومن الثابت من روایاتنا وهي تلك الروايات التي اعترف بها الأعداء أيضا أن رسول الله عليه السلام قد آخى حتى بين المهاجرين والأنصار في أعقاب الهجرة مباشرة ونتيجة لهذه المؤاخاة فإن المسلم لم يصبح أخاً للمسلم فقط بل يحق له أن يرثه في أملاكه في حالة وفاته ، وبعدها - حين أثبت القرآن الكريم حق الوراثة برابطة الدم - لأن حالة المهاجرين المادية تحسنت ، ظلت هذه المؤاخاة قائمة أيضا إلا أنه لا وراثة فيها ، ومارغوليوث وهو من المستشركون المعادين للإسلام لم يعترف فقط بالتضحيات العظيمة التي بذلها الأنصار ، بل اعترف أيضا بحقيقة الحالة الاقتصادية الطيبة للمهاجرين وكسب عيشهم عن طريق العمل بالتجارة والزراعة والصناعة وغيرها .

ويثبت من كل هذه الحقائق أن المهام الأولى كانت تهدف في المقام الأول

والأخير إلى هدف تبليغى دعوى وسياسى ، ولم يكن للعامل الاقتصادي أى دور وراءها . أما ما يثيره المستشرقون والمؤرخون الجدد من أن الدافع إليها كان دافعًا اقتصاديا فهو خطأ جسيم من أوله إلى آخره .

غزوة بدر

هناك وجهتا نظر فيما يتعلق بغزوة بدر ، الأولى تتعلق بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية ، والثانية تتعلق بأصحاب السيرة والسواعن . وتحليل جميع روایات المصادر المتعلقة بأصحاب ووجهة النظر الثانية يدل على أن المهمة التي قادها رسول الله ﷺ مع مسلمي المدينة على القافلة المكية المتوجهة إلى الشام والتي كانت تحمل بعض أموال قريش ، بقيادة أبي سفيان بن حرب الأموي . خرج إليها من المدينة المنورة (٣١٤) فدائي من بينهم (٨٣) من المهاجرين و (٢٣١) من الأنصار ، وحين وصلوا إلى بدر عرروا أن قافلة أبي سفيان التجارية قد نجت ، وبعد أن سمعت قريش بخبر خروج المسلمين ، أعدت جيشا ضم حوالى ألف جندي تقريبا ، ووصل بالقرب من بدر ، واضطرب المسلمون إلى الدخول في الحرب التي انتهت بنصرهم في النهاية .

ولتكننا نعرف من الآيات الأولى لسورة الأنفال (آية ٥ - ٢٠) أن رسول الله ﷺ قبل خروجه من المدينة المنورة كان قد علم بقيام جيش قرشي مكة قبلًا ، وطبقا للآيات القرآنية حين خرج رسول الله من المدينة مع المسلمين ، كانت هناك إمكانية لأن يلتقي ويصطدم مع القافلة العائدة من الشام ومع الجيش القرشي القادم من مكة ، وكانت جماعة من المسلمين تتوجه إلى القتال وكانت جماعة أخرى تتمى أن تلتزم وتصطدم مع القافلة التجارية القادمة من الشام ، وتحاول الاصطدام بجيش قريش ، لأن في هذا خطرا على أرواحها ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المسار بقوله : ﴿كَانُوا يَسَّاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾^(١) إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي هَذِهِ

(١) ﴿يُجَاهِلُوكُمْ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَانُوا يَسَّاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظَرُونَ﴾ الأنفال آية ٦ . المترجم .

الموقعة ، ولهذا نجت القافلة التجارية ، والتحم المسلمون بجيش قريش ، وصدق الوعد الإلهي ، وقد جاء التأييد الإلهي كما أوضحت كتب الأحاديث المتعددة ، البخاري ومسلم ومسند أحمد بن حنبل وغيرها ، وأيدته أيضًا بعض الروايات التاريخية .

والمستشرقون والمؤرخون الجدد الذين أسلكوا نظرتهم نظرية الدوافع الاقتصادية ، قد غضبوا النظر تماماً مما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية في هذا الصدد ، كما صرفوا النظر عن الروايات التاريخية التي تتعارض مع نظرتهم ، والتي تؤيد النظرية القرآنية . ووجهة نظر المستشرقين والمؤرخين المخالفين للإسلام واضحة تماماً ، إذ يقولون بأن الدافع الأساسي للغزوات والسرايا الإسلامية كان الغزو والإغارة والحصول على الغنائم ، ولهذا فمن المفهوم أنهم سوف ينصرفون تماماً عن جميع الروايات والشاهدات التي تتعارض مع نظرتهم . وفي الحقيقة فإن المشكلة هنا في أولئك المؤرخين المسلمين الذين يعارضون - من جانب - نظرية الغزو والإغارة ، ومن ناحية أخرى يرون أن خطوة إغارة المسلمين على قافلة قريش العائدة من الشام إنما كانت مقدمة لغزوة بدر ، فالاستدلالان يعارض كل منهما الآخر ، لهذا خرج بعض هؤلاء المستشرقين - بنظرية غريبة - وهي أن جميع المهمات الأولى التي خرجت قبل غزوة بدر كانت مخططة للخروج من أجل التصدي للقوافل التجارية المكية ، وأرادوا أن يثبتوا الدافع الفعلي فقالوا إن المدف لم يكن الإغارة ، بل أراد الرسول ﷺ عن طريق هذا الأسلوب أن يؤثر على الاقتصاد المكي حتى يضطر أشراف قريش وأكابرها الذين ركبهم الغرور إلى عقد معاهدة أو مصالحة سياسية مع المسلمين .

لقد قام العلامة (شبل النعماني) بكتابه بحث عظيم عن غزوة بدر ، عرض فيه لما جاء في القرآن الكريم والأحاديث النبوية وجميع الروايات التاريخية ،

وحللها تحليلًا صحيحًا . وبعدها عرض لأسلوب الرسول ، وقدم تحليله مطابقًا للروح الإسلامية ومطابقًا للنظر التاريخي الصحيح وخرج (شبل) بعد تحليله الصحيح لأحداث غزوة بدر ، نتيجةً للدعم آرائه بالدلائل القاطعة والبراهين الحتمية ، فقال : إن الرسول ﷺ حين خرج مع المسلمين من المدينة المنورة ، كانت في ذهنه وأمامه خطة واحدة وهي الاتحاح مع جيش مكة ، بينما كان لقاء قافلة قريش التجارية أمرًا ممكناً ، إلا أنه ﷺ لم تكن لديه نية أبداً في نهب القافلة أو الإغارة عليها ؛ إذ إن الظروف التاريخية الثابتة تدل على أن المحرك والدافع الأساسي لغزوة بدر كان الجهاد الإسلامي .

أما أولئك الذين حاولوا أن يجعلوا هدفها اقتصادياً ، فهم يؤيدون دون فهم أو تفكير نظرية المؤرخين المغرضين والمستشرقين أعداء الإسلام في هذا الشأن وهم يحاولون أن يثبتوا أن جميع الغزوات الإسلامية والسرايا الإسلامية كانت تهدف إلى الغزو والسلب ، وأن هدفها كان اقتصادياً بحتاً .

غزوات النبي

بعد غزوة بدر ، لم يتجرأ أيٌ من المؤرخين المغرضين على البحث عما أسموه بالدوافع الاقتصادية لأى غزوة أو سرية من الغزوات التي وقعت مع قريش مكة ؛ لأن جميع الغزوات والسرايا التي وقعت بعد ذلك كانت منبثقة عن مجرد تصادم أو تلامح سياسي ، مع أن بعض المؤرخين قد أثبتوها أنها غزوات سياسية فقط . إلا أنها نقرّ بأنها بأى صورة من الصور كانت مظهراً من مظاهر الجهاد الإسلامي . ولو كان الرسول ﷺ يضع نصب عينيه أموال الغنائم هدفاً ، فقد كان فتح مكة وغزوة حنين والطائف من أطيب الفرص التي واتته ؛ فائناء فتح مكة كانت جميع ثروات أغبياء قريش أمامه يستطيع أن يستطع أن يستولي عليها ، ولو أراد المسلمون لانتقموا مما حاق بهم من ظلم على يد قريش مكة ، ولنهاوا ثرواتهم ولكن النبي ﷺ عفا عن أهل مكة كلهم .

وفي غزوة حنين استولى الرسول ﷺ على الأموال التي أخذت من الأعداء فقط في ميدان القتال ، ولم يهجم على قرى الأعداء وأهلها ولم يسلبهم مالهم ، وكان من الممكن أن يحصل على الكثير من الأموال إذا ما قبل الأموال التي يقتدى بها أسرى حنين أنفسهم ، إلا أنه أطلق سراحهم أيضا بلا فدية ؛ لأنهم كانوا من القبيلة التي أرضع فيها ، وما جاء ضمن نظرية التصادم المسلح مع قريش ومن قبلها الإغارة على القوافل ، إنما هو أمر عجيب وغريب ، إذ ينال المسلمون أقل الغنائم مقابل مواجهة أعداء كثرين . وإذا حللنا جيداً باءيمان وبحق في ضوء النظر التاريخي الصحيح جميع الغزوات النبوية فسوف نعرف أن أول هدف من أهداف رسول الله ﷺ كان إعلاء كلمة الله ، والجهاد في سبيل الله ، وأن نظريات الدوافع الاقتصادية ليست فقط نظرية خاطئة ، بل إن ترويجها إنما هو في أساسه راجع إلى سوء نية وخبث القائلين بها !!.

العلاقات مع اليهود : الروابط الفكرية

عرض معظم المستشرقين والكثير من المؤرخين الجدد علاقات الرسول ﷺ مع يهود الحجاز بطريقة خاطئة تماماً ، وحاولوا بكل الطرق مسخ التاريخ الإسلامي . وكانت نقطة بداية هذه العلاقات بعد الهجرة النبوية حين دعا رسول الله ﷺ يهود المدينة إلى قبول الإسلام . وهو طبقاً لتلك الروايات - ما كان يتمناه من مدة طويلة ، وساعدوا بعض الأشخاص الصالحين من أصحاب التوابيا الطيبة ، فإن جميع يهود المدينة رفضوا دعوته ، نظراً لما كانوا عليه من غرور وكبر وعصبية دينية ، وشعورهم بالتفوق الاقتصادي والاجتماعي . وقد قسم المستشرقون العلاقات النبوية مع يهود المدينة إلى قسمين :

في القسم الأول ذكرروا تلك المساعي - التي هي في رأيهم - كانت تهدف من جانب النبي إلى أن يُلبيس الإسلام ثوب اليهودية ، وأطلقوا على هذه الفترة

« عصر المصالحة » .

والفترة الثانية هي التي أطلقوا عليها « عصر المعارضه » أو المواجهه ، حين يُعَسُّ النّى من دخولهم في الإسلام ، فلم يعمد فقط إلى نقد نظمهم الاجتماعي والاقتصادي والديني ، بل اتّخذ ضدهم إجراءات عسكرية ، حتى تمكن من قمعهم وطردهم ، وأضطر المستشركون في عرضهم لهذين القسمين من حياة الرسول أن يخللوا الأمور بتفصيل جعلهم يثرون الكثير من العقول ويصيّونها بالاضطراب .

لقد تغّنى المستشركون منذ فترة طويلة وبعيدة بأن رسول الله كان يأمل أن تدخل قبائل اليهود في الإسلام بعد المجرة ، وحتى يقربهم إلى الإسلام ويلين قلوبهم بدأ في صياغة الإسلام صياغة تتطابق مع الدين اليهودي والشريعة اليهودية ، وهكذا تبعهم في الاحتفال بصوم يوم عاشوراء ، ثم كان يوم الجمعة ، وجعل بيت المقدس قبلة المسلمين ، وأجاز ذيبيتهم وحلل الزواج من نسائهم ، ولكن حين رفض المهدى جميع محاولاته هذه الرامية للصلح ، نظراً لعجرفتهم وغرورهم ، وبدأوا في نقده ونقد دينه نقداً عقلياً ونقلياً ، حينئذ ترك الرسول أسلوب المصالحة معهم ، وبدأ يُعارضهم وينقدّهم نقداً عقلياً مقرّونا بمواجهتهم بحزم وبشدة وبصورة عملية .

وفيما يتعلّق بالنقد العقلي فقد أوضح ما لدى اليهود من إفراط وتفريط في الدين ، وتحريفهم وتبيّن لهم للتوراة ، والتحايل على الأحكام الإلهية ، وانغماسهم في المساوية الاجتماعية ، وتجاوزهم للحدود الإلهية في المعاملات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من أمور واردة في القرآن الكريم .

وفي بداية فترة المواجهة بدلاً من صوم يوم عاشوراء فرض صوم رمضان ، وبدلاً من الاتّجاه إلى بيت المقدس أصبحت الكعبة هي قبلة المسلمين . ولم يصدر عن المؤرخين أي شيء آخر في الأمور الأخرى الخاصة

بالمصالحة ، فلم يكتبوا بفرضها كما لم يكتبوا بتصديقها .

ويعرف حتى طلاب السنوات الأول من دارسى التاريخ الإسلامى أن تحويل قبلة المسلمين في الصلوات الخمس عن بيت المقدس ، قد تم قبل عدة سنوات من الهجرة في وقت لم تكن هناك قضية إرضاء اليهود أو مهادنتهم مكان ، ولم تكن فكرة الهجرة إلى المدينة حتى قد وردت على الخيال . ثم إن صوم عاشوراء كان نعلا و كان بالنسبة للمسلمين سنة نبوية ، و ذلك بعد إقرار فرضية صوم رمضان ، ولا يزال حتى اليوم سنة يقيمها المسلمون ، ثم أى مصلحة تلك التي اقتضت فرض صيام « ثلاثة » يوم [شهرًا] بدلا من صيام يوم واحد ؟ لو أن رسول الله ﷺ اضطر لخالفة الدين اليهودى ، وطريقة اليهود وأسلوبهم لحرم ذبيحتهم ولحرم الزواج من نسائهم وحرم صوم عاشوراء ... وهى الأمور التى لاتزال مباحة حتى يومنا هذا . وقد أقر صلاة الجمعة كما وكما كانت عليه دون تغيير .

إن محاولة المستشرقين وأعداء الإسلام من المؤرخين إعطاء بيانات خاطئة لمسخ التاريخ هو في الأصل دليل واضح وبيان فاضح على عداوتهم الشديدة وتعصيمهم الدينى ضد الإسلام ورسول الإسلام ، ونظرتهم الخاطئة هذه إنما يرجع سببها إلى اعتبار الإسلام والمسيحية واليهودية أديانا منفصلة عن بعضها البعض ، ويتعارض بعضها مع البعض ، بينما القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وجميع الروايات الإسلامية توضح أنه ليس فقط الأديان الثلاثة بل جميع الأديان التي جاء بها جملة الأنبياء الكرام كانت تتفق مع الإسلام ، وقام علماؤها ورهبانها بتحريف التعليمات الإلهية الأصلية ، فحرفوا الأديان ومسخوها وانحرفوا بها عن جادة الطريق ، ومن الواضح أن الإسلام يعترف بالدين اليهودي والمسيحي قبل تحريفهما ؛ لأنهما ينبعان من منبع واحد ، وهناك بالضرورة اشتراك في الأصول والعقائد ، وهناك ولا شك أيضا اختلاف ممكن

في الشريعة والقانون ، إذ كانا يتطابقان بالضرورة مع ظروف ومستلزمات الحالات والزمان وضرورات كل أمة ، والمستشارون قد أخطأوا ، وجانبهم الصواب وهم يقسمون سياسة رسول الله ﷺ مع يهود المدينة إلى فترتين مختلفتين ، طبقاً لغرضهم الدفين وهو نفسيهم الكمين ، والتاريخ يثبت بصورة قاطعة أن سياسته ﷺ مع القبائل اليهودية كانت من البداية وحتى النهاية تمضي على وتيرة واحدة .

تشكيل المجتمع الإسلامي : المؤاخاة

يلزمنا لفهم النوعية الصحيحة للعلاقات السياسية للدولة الإسلامية مع يهود المدينة أن نقف جيداً على المعلومات الأولية والضرورية المتعلقة بتشكيل المجتمع الإسلامي ، وبناء وتطوير الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، وهي تلك الأمور التي كان ليهود المدينة صلة قريبة منها وعلاقة بها .

بعد الهجرة مباشرةً قام ﷺ عن طريق المؤاخاة بإقامة علاقة محكمة من الأخوة وعلاقة قوية من الحب بين مهاجري مكة وأنصار المدينة ، فأُوجد بين هاتين الطبقتين من المسلمين فكراً مستقلًا وانسجامًا وتناسقاً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ، وقضى هذا الأمر على جميع ما من شأنه أن يوجد تناقضاً داخلياً بين المجتمع أو يوجد بصيغها دلالة « أنا وأنت » داخل المجتمع المسلم الذي قام على دلالة « نحن » .

وكانت هذه أول خطوة عملية وربما أعظم عمل تطبيقي لقيام المجتمع الإسلامي الصحيح . لقد كان المجتمع منظماً تنظيماً مستقلاً وثابتاً ، وُضع أساسه بناءً على حكم القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ . وعن طريق هذا الحكم . أبعد الإسلام امتيازات التفريقي القبائلي والاجتماعي بنجاح كبير ، ونظم المجتمع الإسلامي على أساس الإسلام فقط .

ويذكر المستشرق « مونتجمري وات » ومن على شاكلته هذه المؤاخاة بطريقة عارضة بلا دليل أو شهادة . وهم يعتبرونها تدبرها عسكرياً أراد به صلوات الله عليه أن يوجد بين المهاجرين والأنصار انسجاماً عسكرياً في ميدان القتال .

ولرفض هذه النظرية نسوق دليلاً واحداً ملخصه أنه لما كان هناك اختلاف في العدد بين مجاهدي المهاجرين ومجاهدي الأنصار ، فكيف قام هذا الانسجام العسكري ؟ في المهمات الأولى وطبقاً للروايات المشهورة فإن المهاجرين فقط دون غيرهم هم الذين اشتركوا فيها . فكيف يمكن أن تقبل هذه النظرية التي يروجها المستشرقون ، بينما المؤاخاة قد حدثت قبل ذلك بكثير ، ثم إنه في الوقت الذي تمت فيه المؤاخاة لم تكن فكرة الحرب وميدان القتال قد ظهرت إلى الوجود .

وعلاوة على ذلك يفهم من الروايات أن المؤاخاة مع المهاجرين القادمين حتى فتح مكة ، ظلت قائمة مع الأنصار ، بل يمكن أن نجد لها أمثلة بعد فتح مكة .

وعلى كل حال يتضح من المصادر أن المؤاخاة كانت محاولة لإيجاد مجتمع مستقل متجانس كانت فيه قضية حق الوراثة قضية عرضية ، أما بقية النظام فقد ظل موجوداً حتى النهاية ، وهو النظام الذي بني عليه المجتمع الإسلامي وتطور وارتقى بل وكان وجوده منحصراً عليه تماماً .

الصحيفة النبوية :

عن طريق المؤاخاة ، وبعد أن حدث تناسق وتجانس وانسجام بين طبقة المسلمين داخل المجتمع ، كان أمام رسول الله صلوات الله عليه قضية هامة هي توثيق العلاقات بين طبقات المجتمع الأخرى غير المسلمة وبخاصة قبائل اليهود . فهذه الطبقات بصفتها غير مسلمة لم تكن تمثل ركناً من أركان المجتمع الإسلامي

الذى يقوم أساسه على الدين الإسلامى .

ولهذا قام رسول الله ﷺ بعقد معاهدة تعاون وصداقة مع كل قبيلة على حدة ، وبإدراها وعن طريق معاهدة جماعية – ذكر منها ابن إسحاق في سيرته الشهيرة – أوجد الرسول بين سكان المدينة كلهم وغيرهم من الطبقات الأخرى غير المسلمة وحدة سياسية مشتركة ، وتعاونا وانسجاما ، وهذا الأمر أوجد بدوره انسجاما واتحادا سياسيا بين طبقات المسلمين وغير المسلمين في المدينة كلها .

وقد عرفت هذه المعاهدة في المصادر باسم « صحيفة الرسول » وأطلق عليها المستشرقون اسم « دستور المدينة » وطبقا لقول « فينسنٹ » و « وات » وأشياهما من المستشرقين فإن هذه المعاهدة النبوية شملت ٤٧٠ مادة يلقي بعضها الضوء على العلاقات بين المسلمين واليهود كما أن بعضها يتعلق بالروابط بين اليهود والدولة الإسلامية ، ففي المادة الأولى والثانية إعلان بأن المسلمين أمة واليهود أمة ، وهذا استدلال عجيب جدا أن يقدم « ولمازون » و « مونتجمرى وات » وغيرهما باعتبار الدين والمذهب أساس المجتمع الإسلامي ومن ناحية أخرى يعتبرون أن اليهود [وليس فقط اليهود] بل الطبقات الأخرى غير المسلمة أعضاء داخل « الأمة الإسلامية » ، وهو الأمر الذي لم تثبت أبدا صحته بأى شكل من الأشكال خلال التاريخ الإسلامي ، ثم يعترف المستشرقون أيضا أنه طبقا لدستور المدينة فإن اليهود وغيرهم من غير المسلمين لم يحصلوا على حقوق تساوى مع حقوق المسلمين . وفي عدة مواد من مواد المعاهدة أقرت الأصول القدية التي كانت تبعها كل قبيلة طبقا لدستورها القديم ، فيما يتعلق بالدية والدم ، وتحمّل القبيلة كلها مسؤولية أعمالها ومسؤولية أعمال أفرادها ، وكان ينبغي على جميع الفئات المشتركة في هذه الصحيفة أن تعتبر المدينة حرما ، وعليها أن تتحمّل مسؤولية الدفاع عنها ، ودفع

النفقات الدفاعية طبقاً للحصة المقررة عليها ، إذا ما تعرضت المدينة للهجوم ، وإذا ما وقع خلاف أو نزاع في أي معاملة من المعاملات ، فيلزم الرجوع إلى رسول الله ﷺ ، وعلى الجميع إطاعة وتنفيذ حكمه وقراره ، ويجب ألا يخرج أحد بدون إذنه إلى حرب أو جدال ، وألا يلتجأ أحد إلى أعداء الإسلام ، وبخاصة قريش ، وألا يرتكب أحد أي عمل من شأنه أن يكون معادياً للمسلمين ، وأن يكون الجميع أوفياء بأى حال من الأحوال للدولة الإسلامية .

المعارك مع يهود المدينة :

يجب تحليل العلاقات السياسية بين الدولة الإسلامية ويهود المدينة على ضوء الصحيفة النبوية .

فبعد غزوة بدر قام يهود بنى قينقاع فلم يطعنوا في حق رسول الله وال المسلمين فقط ، بل أثاروا القتال والنزاع والفن ، وهو ما يتنافى صراحةً والمعاهدة ، وفي زمانهم اعتدى أحد اليهود على امرأة مسلمة في سوق الصرافة الذي كانوا يتذكرونه ويعملون به ، فقام مسلم غيور فضرب الجرم ، فقام اليهود على الفور وقتلوا هذا الشاب المسلم ، وحاول رسول الله ﷺ رد بنى قينقاع عن غيّهم هذا ، وعن أفعالهم الشائنة تلك ، وذكرهم بشروط المعاهدة ، إلا أنهم لم يُظهروا فقط استعدادهم للقتال بل قاموا بنقض المعاهدة تماماً ، وكانت النتيجة القيام بعمل عسكري ضدهم . فقاموا بالالجوء إلى حصونهم وحصروا فيها ، وحين دب اليأس في قلوبهم ، وبعد خمسة عشر يوماً ، أعلناوا الاستسلام دون شرط ، فتم إجلاؤهم عن وطنهم ، وحملوا معهم جميع أمتعتهم وأموالهم وأجناس الطعام والمواشي ، دون الممتلكات غير المنقولة والسلاح ، وبعد جلائهم عن الوطن قامت عدة قبائل يهودية بتجديد المعاهدة مرة أخرى ، إلا أنه بعد غزوة أحد عمد بنو النضير إلى مساعدة قادة جند وغزارة قريش أعداء المسلمين

ودفعهم غرورهم إلى التآمر على الدولة الإسلامية الناشئة ، تلك التي تعاهدوا على أن يكونوا أوفياء لها ، وأن يتحملوا مسئولية الدفاع عنها ، وطبقاً للمعاهدة ، وحين ذهب الرسول إليهم للحصول على النصيب الواجب دفعه في دية قتل بنى عامر ، تآمر اليهود عليه وحاولوا قتله عليه السلام ، وتم عقابهم عن خدرهم هذا بنبفهم ، وحصلوا على جميع التسهيلات التي حصل عليها من قبلهم بنو قينقاع ، حتى إنه سمح لهم بالحصول على فوائد قروضهم التي كانت لدى المسلمين ، وحصلوا عليها كاملة ، وطبقاً لأقوال المؤرخين خرج هؤلاء اليهود من ديارهم معززين مكرمين لدرجة أن نسائهم قمن بوضع ما يمتلكن من ذهب للزينة على أجسادهن .

ومن الملاحظ أن قضية بنى قريطة كانت مختلفة إلى حد ما ، فقد نقضوا المعاهدة في وقت حرج ودقيق ، كان المسلمون فيه بين الحياة والموت وهو ما حدث في الأوقات الحرجة من غزوة الخندق حين أرادوا مساعدة الأعداء بكشف جناح المسلمين ، ولم تنجح مؤامرتهم بتفريق من الله ، وبعد عودة جيوش الأحزاب ، اتخذت ضدهم إجراءات عسكرية ، وفي النهاية اضطروا إلى إلقاء السلاح والتسليم دون شروط ، وأصدر حكمًا ضدهم رجل انتخبوه هم هو سعد بن معاذ الأوسى ، الذي حكم عليهم طبقاً لما جاء في التوراة ، وهو قتل جميع الرجال العاقلين البالغين ، وأن تصبح زوجاتهم إماء وأطفالهم علمائًا ، وقد أثبت باحثان مسلمان هما (و . ن . عرفات) و (بركات أحمد) أن جميع بنى قريطة لم يقتلوا ، كما أن أولادهم ونساءهم لم يصبوا غلمنا وإماء ، بل إن رؤسائهم فقط اعتبروا مجرمي حرب فقتلوا ، وتم العفو عن بقائهم ، وردت إليهم أموالهم ، كما توضح مصادرنا القديمة أيضاً أن عدداً من أسر بنى قريطة وأفرادها تم العفو عنهم بوساطة بعض المسلمين ، على شرط أن يتبع اليهود سلوكاً يتسم بالوفاء ، وردت إليهم أملاكهم وممتلكاتهم جهيناً .

ويتضح من تحليل جميع الروايات أن الدولة الإسلامية قامت بالتخاذل إجراءات عسكرية ضد هذه القبائل اليهودية الثلاث نظراً لأسباب سياسية كانت مسؤوليتها كاملة تقع على كاهل القبائل المذكورة ، فقد قاموا بمعارضة المعاهدة ونهايتها قصداً وعملاً والعمل خلافاً لما جاء في موادها ، وخلافاً لما وقعوا عليه وأقروه ، كما قاموا بارتكاب غدر واغتصاب فاسد الدولة التي تعهدوا رسمياً بمسؤولية الدفاع عنها وحمايتها ، وقد عوقبوا طبقاً بجرائمهم التي ارتكبواها وليس لأنهم يدينون باليهودية ، ويتبين من المصادر – وهو ما يعترض به أيضاً مونتجمرى وات ومن على شاكلته من المستشرقين – أنه رغم هذه الإجراءات فقد بقيت في المدينة المنورة أكثر من عشرين أسرة يهودية ، ولم يثبت أبداً ضدّها أى إجراء سياسي في العهد النبوى ، وفي عهد الخليفة بظولها ، فلم يسلب أموالهم ولا ثرواتهم ، ولم يستول على أملاكهم ولا على ممتلكاتهم ، ولو كان هدف الرسول ﷺ هو الحصول على الأموال والغذاء لما سمح رسول الله بأن تأخذ القبائل التي نفاهما أموالها ومنظولاتها وأمتعتها معها ، ولما أعاد لهم قروضهم التي كانت لدى المسلمين .

وصحّ أن الأهمية الاقتصادية للملكيات غير المنقوله أكثر ، وفائدها أعم ، إلا أن الحقيقة أيضاً هي أن الأموال والأمتّعات والأجناس التي حملها اليهود معهم كان من الممكن أن تمثل من ناحية أخرى عوناً ومدداً عظيماً للمسلمين داخل دولتهم .

إن المستشرقين عمدوا إلى تضخيم الإجراءات العسكرية للدولة الإسلامية ضد اليهود إلا أن بعضهم بدأ الآن تدريجياً في الاعتراف بالحق ، رغم أن هذا الاعتراف يحمل بين طياته السم إلى حد ما .

يجب أن ننظر دائماً إلى علاقات يهود المدينة في ضوء خلفية تشكيل الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ، وإلا فلن نحللها ونقدّها بطريقة صحيحة .

تشكيل الدولة الإسلامية :

عرض بعض المستشرقين وعلى رأسهم (مونتجمرى وات) نظرية فحواها أن النظام السياسي الذى أقامه رسول الله ﷺ في المدينة المنورة قد قام على أساس قبليه ، وطبقاً لرأيه ، فقد كان هناك وفاق بين مختلف القبائل والبطون في المدينة المنورة ، وكان هذا الوفاق يضم تقريرياً تسع قبائل كبيرة ، ويمكن القول بأنها كانت تمثل تسع وحدات سياسية من بينها وحدة تضم المهاجرين ، وكان رسول الله ﷺ رئيساً للمهاجرين فقط ، وبإضافة إليه كان هناك ثمانية رؤساء سياسيين للقبائل كانوا في جميع الأشكال متساوين معه في الرتبة والمكانة ، ولم يكن له عليهم أي أفضليه .

ويحاول هؤلاء المستشرقون في النهاية أن يثبتوا أنه لم يكن حاكماً للمدينة ، كما أنه لم تكن هناك دولة إسلامية بالمدينة تحكم جميع القبائل الأخرى .

وهذه نظرية خاطئة من الناحية التاريخية ودلالتها باطلة ، ففي بيعة العقبة الثانية اعترف مسلمو المدينة برسول الله زعيماً وقائداً مثلكما اعترف به مسلمو مكة بعد الهجرة ، ولم تنته سعادته ﷺ إلى حد السيادة على المهاجرين فقط ، بل امتدت لتشمل الأنصار أيضاً ، ويمكن القول بأنه بعد الهجرة مباشرة كان ﷺ هو شيخ ورئيس جميع طبقات المسلمين بلا استثناء وبعد دستور المدينة أصبح عليه الصلاة والسلام هو القائد السياسي للمدينة بأكملها بما فيها من يهود وغيرهم من غير المسلمين ، ورغم أن اليهود لم يعترفوا به كرسول فإنهم بانضمامهم إلى المعاهدة النبوية أو الصحيفة النبوية سلماً بزعامته السياسية ، تلك الزعامة التي جعلتهم يعترفون بالحقيقة القانونية للإجراءات العسكرية التي اتخذت ضدهم .

لقد كان ﷺ هو الحاكم الأعلى للمدينة والقائد الديني والسياسي للجميع . اعترف به الجميع بعد الهجرة مباشرة وحتى غرفة الخندق كانت القبائل

الموجودة في أطراف ونواحي المدينة قد اعترفت بسيادته ، وقد كان منبع سيادته وقيادته رسالته ونبوته ، والمستشرقون أساسا لا يريدون التسليم في كتاباتهم بهذه المكانة الأساسية لرسول الله ﷺ لأنها مكانة دينية .

يهود خير :

كان يهود خير من بين القاطنين خارج المدينة يحيكون المؤامرات ضد الدولة الإسلامية ، وكان من أهم العناصر المتأمرة يهود بنى نضير الذين نفوا من ديارهم ، وخاصة شيوخهم ورؤسائهم الذين كانت نيران الانتقام والحسد تعتلج في داخلهم ، فقد لعبت أيديهم دورا في غزوة الأحزاب ، وفي تأليب القبائل العربية على المدينة ، وفي دفع بنى قريطة إلى الغدر ، وبعد صلح الحديبية وحين اطمأن رسول الله ﷺ إلى جانب قريش في مكة رأى أن أول عمل يجب أن يقوم به هو أن يسد باب مؤامرات يهود خير ، وقام جيش المسلمين الذي ضم مجاهدي غزوة الحديبية بمحاصرة خير وكان بها عدة قلاع ، تم حصار بعضاها ولم تصمد للحصار ، فسقطت واحدة بعد الأخرى وحين وضح لليهود أنهم سيهزمون عرضوا الصلح فقبله الرسول ، وتم على أن يُقدم زراع اليهود نصف نتاج أراضيهم كل موسم بمنابة خراج ، وبعدها تم عقد معاهدات أخرى مع يهود خير الآخرين الذين يعيشون في قرى فدك وتيماء ووادي القرى على نفس الشروط .

وصفحات التاريخ الإسلامي شاهد عدل وحكم فصل على أن المسلمين لم يغدروا وصانوا شروط معاهداتهم بكل أمانة وإنصاف وخوف من الله ، ويشهد على ذلك الأعداء الذين هزموا ، يشهدون على أصول العدل وإنصاف الإسلامي ، وعلى سلوك المسلمين السامي ، وما اتباعه المسلمون مع أهل خير ونواحيها من القرى إنما يثبت بذلك أن الإجراءات العسكرية التي نفذت ضد هذه المناطق لم تكن وراءها أية عوامل أو محركات اقتصادية بل كان هدفها

الأساسي للجهاد الإسلامي الذي تم به رفع كلمة الله وقوية الإسلام وصيانة الأمة الإسلامية والحفاظ على الدولة الإسلامية .

والجيش الإسلامي لم يكن كغيره من الجيوش يعتمد إلى السلب أو النهب أو القتل أو الدمار ، فلم يكن ليتعرض إلا للسلاح وأموال الغنيمة التي يحصل عليها في ميدان القتال .

إن القبائل اليهودية التي سلكت مع الدولة الإسلامية سلوكاً طيباً سليماً ، ولم تلجأ إلى أسلوب التآمر أو الخداع ولم ترفع في وجه الدولة الإسلامية السلاح ، هؤلاء لم يتخذ المسلمون ضدهم أى إجراء عسكري ، ولقد كان الإجراء العسكري الذي اتخذه المسلمون ضد خيبر والقرى المجاورة لها إجراء اضطر إليه المسلمون حتى يقتلعوا جذور المؤامرات والفتنة والفساد .

الخط السياسي للعلاقات مع غير المسلمين :

يتضح من تحليل الخط السياسي للدولة الإسلامية مع الفئات غير المسلمة أن الخط السياسي الذي اتخذه الرسول بعد الهجرة كان يهدف إلى دعوة القبائل والبطون غير المسلمة إلى الإسلام ، فإن امتنعوا عن قبول الإسلام عقد معهم معاهدة صلح وتعاون أو على الأقل عدم الخياب .

وهكذا تم عقد معاهدات من هذا القبيل مع القبائل المجاورة للمدينة المنورة ، وبخاصة القبائل الغربية مثل مزينة ، جهينة ، كنانة وغيرها ، وبالتدريج وفي فترة بسيطة دخلت هذه القبائل في الإسلام .

و قبل أن تتجدد هذه التدابير والخطط التي وضعها رسول الله ﷺ نجاحاً كاملاً بدأت سلسلة الغزوات مع قريش مكة ، وكان من نتيجة ذلك أن بعض القبائل التي ناصبت الإسلام العداء انتهت بهجاً يهدف إلى التآمر على الدولة الإسلامية وقتالها واضطرب رسول الله ﷺ إلى أن يعلن الجهاد ضد جميع هذه العناصر المعادية ، وأنخضع كثيراً من تلك القبائل بهزيمتها ، إلا أن الأسلوب

الذى اتبعه معها كان قائما على العدل والإنصاف ، فالقبيلة أو الجماعة التى طلبت الصلح ، أجييت إلى طلبها ، ولكن حين كان الأمر يقتضى إقامة وحدة سياسية للجزيرة العربية كلها ؛ لأنه بدون هذه الوحدة لا يمكن للدولة الإسلامية أن تبقى ، ولا يمكن أن تكتمل الفريضة الإلهية الرامية إلى إعلاء كلمة الله ، حينئذ أصر رسول الله ﷺ أن يطالب جميع السكان العرب بالموافقة على أحد معتليين : إما أن يقبلوا الإسلام ، ويصبحوا بذلك من مواطنى الدولة الإسلامية بصورة كاملة فيؤدون الفرائض الإسلامية كاملة بما فيها الأحكام التى تخص المال أى الزكاة والصلوات ، وإنما أن يعترفوا بالتفوق السياسى للدولة الإسلامية إن أرادوا البقاء على دينهم ، وعليهم أن يخضعوا لها ، ويكون ضمان هذا الوفاء هو دفع الجزية السنوية وفي مقابل دفع الجزية تكون على الدولة الإسلامية مسئولية حماية أرواحهم وأموالهم وعزتهم وكرامتهم ، ويحصلون بذلك على مكانتهم في المجتمع بصفتهم من « أهل الذمة » ويكون لهم حقوقهم وعليهم واجباتهم التى حددتها الإسلام ، ومن خلال هذه الخلفية ، ومن خلال تخلينا لجميع الغزوات والسرایا النبوية تخلينا كاملاً نعرف أن المسلمين قد رفعوا السيف في وجوه تلك العناصر التى أثارت الفتنة والفساد أو كانت عاملة من عوامل إثارة الفتنة والفساد ، وكانت تهدف إلى القضاء على الدولة الإسلامية ، على أن الدولة الإسلامية قد اتخذت من المصالحة أسلوباً لها مع جميع الفئات التى كانت تدعو للمصالحة ، وتريد الحياة في أمن وسلام .

وفيما يتعلق بالحصول على الفوائد الاقتصادية وأموال الغنيمة فإن التاريخ يثبت أنها لم تكن هي الدافع ، ولم تكن هي الحرك ، ولم تكن هي الهدف بل كان كل هذا من ثمار الجهاد الإسلامي ، وإذا ما حللنا جميع أموال الغنيمة التى تم الحصول عليها أثناء الغزوات والسرایا النبوية فإن نصيب حياة المسلمين الاقتصادية في المدينة كان اثنين بالمائة (٢٪) فقط ، أما الباقي فقد كان من نصيب الدولة للحفاظ على الأمن ، لقد كان الهدف الأساسي لجميع تلك الغزوات والسرایا هو الجهاد الإسلامي وهو ما يمكن أن تجد له مئات الأمثلة التي قدمها لنا القرآن الكريم وقدمتها لنا الأحاديث النبوية ، وقدمتها لنا التاريخ الإسلامي .

الرسالة العالمية :

مع أن المستشرقين وبعض المؤرخين الجدد يدعون أن رسول الله ﷺ كان رسولًا للعرب دون غيرهم ، وأن الرسالة التي حملها كانت قاصرة على منطقته التي عاش فيها ، بل كانت وقًعاً أيضاً على زمانه هو ، وأكثر من هذا فإنهم يدعون بدعوى عجيبة وغريبة وهي أنه لا شرف له في الجحى بهذا « الانقلاب » أو « الثورة الإسلامية »^(١) لأن المجتمع العربي آنذاك كان متعطشاً لثورة اجتماعية وحركة إصلاحية أخلاقية ، وحين وجد هذا المجتمع إمكانات قدوم مثل هذه الثورة الاجتماعية والأخلاقية في شكل الإسلام خطأ خطوة للأمام فرحب أفراده به .

وهذا الادعاء بشطريه لا يوجد فيه تناقض فقط ، بل إنه لا يقوم على محل التحليل والنقد التاريخي وسوف نقوم بتحليله بشطريه .

من بين مستشرق العصر الحديث المشهورين « مونتجمري وات » وهو من المتعاطفين مع التاريخ الإسلامي ، إلا أن إعجابه بالإسلام لا يمنعه من أن يقدم من خلال كتاباته الاستعراضية تلك النظرية الخاطئة في حق الرسالة العالمية والنبوة العالمية لرسول الله بعد بحث وكد وجهد جهيد ، وهو يدعى أن النبي ﷺ بعد تشريفه للمدينة المنورة لم يعرض الإسلام على يهود المدينة المقدسة لمدة طويلة ولم يقل للفئات الأخرى من غير المسلمين أن يدخلوا في الإسلام ، فلقد كانت رغبته وكان هدفه فقط هو أن يعترفوا به ، كواحد من أنبياء الله « حتى يجد لنفسه شهادة تصدق » بين العرب على قبول رسالته ، إلا أنهم لم يفعلوا هذا ، وهكذا وبعد مدة كافية حين عرض عليهم الدعوة إلى الإسلام ، فرفض اليهود قائلين له : إن الإسلام هو دين العرب فقط ، وليس ليقية الفئات والجماعات ؛ لأنه ليس دينًا عالياً ، وحتى يرد على استدلال اليهود هذا عرض عليهم تصور الدين الإبراهيمي ، قائلًا بأن الإسلام الذي جاء به والدين الذي يدعوا إليه هو في الأصل الدين الحقيقي لأبي الأنبياء والجد الأكبر للعرب

(١) ليس الإسلام انقلاباً ولا ثورة بل دعوة ونبوة وإنما استعمل المؤلف مصطلحات المستشرقين فقط بهكما بهم !!

واليهود ، إبراهيم عليه السلام ، وهو الدين الذي يجب أن تقبله البشرية جماء ، بما فيهم اليهود والنصارى الذين ابتعدوا عن الدين الأصلى لإبراهيم عليه السلام ، وقد حاول المستشرق المذكور بكل جد وجهد أن يثبت أن سورا وآيات المكية لا توجد فيها تصورات لدين إبراهيم ، إلا أن ذكر إبراهيم ودين إبراهيم قد وردا بكثرة في سورا وآيات المدنية ، وبسرعة بعد ظهور الاختلاف الفكري والعملى مع اليهود ، وكأن ربط الإسلام بدين إبراهيم لم يكن مجرد أن اليهود والنصارى عارضوا الإسلام .

وقد واجه « مونتجمرى وات » ومن هم على شاكلته مثل « ريتشارد بيل » وغيره ، صعوبة في أن يثبتوا مزاعمهم وأفكارهم ، فصرفوا النظر تماما لا عن الروايات الإسلامية فقط بل عن روایات آيات الكتاب المقدس أيضا ، وقاموا بتأويلها تأويلا عجيبة ، ولابد أن في القرآن الكريم والأحاديث النبوية والروايات الجاهلية وشواهد التاريخ الإسلامي ، ما يثبت بصورة حتمية أن العرب قبل ظهور الإسلام لم يعتبروا أنفسهم من أولاد إبراهيم فقط ، بل كانوا يعتبرون أنفسهم أتباع دينه ومذهبة .

وأكثر من هذا هو تسلیم بعض المستشرقين بالحقيقة القائلة بأن اليهود إنما عارضوا رسول الله مجرد شعورهم بالتفوق والتمييز الجنسي وشعورهم بالتفوق الديني ، فقد كان تفكيرهم منحصرا في أن آخر الأنبياء سيولد من بين بنى إسرائيل ولكن حين كانت بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بنى إسماعيل أنكروا الإيمان برسالته ، لما فيهم من عصبية إسرائيلية ، ولكن كان من بينهم علماء حق وعدل وعلى رأسهم العالم اليهودي الشهير عبد الله بن سلام ، الذي صدق بالبشارات الواردة في التوراة والإنجيل فيما يتعلق ببعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وآمن برسالته وقال : إنها رسالة عالمية ، وإن محمدًا مرسلا لجميع البشر ، ودعا أهل دينه أيضا للدخول في الإسلام ، وفضلا عن ذلك يتضح من خلال عدد من آيات القرآن أن إبراهيم وعيسى عليهما السلام قد بشرًا بقدوم رسول مكى

يأتي من بعدهما اسمه أَحْمَدُ ، والعديد من الآيات القرآنية تخبرنا بوضوح تام بأنَّه ﷺ مُرْسَلٌ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمِيعَهُ ، وَهُنَاكَ شَهَادَاتٌ لَا حُصْرٌ لَّهَا يُمْكِنُ استخراجُها مِنَ الْحَدِيثِ وَالتَّارِيخِ عَلَى عَالَمِيَّةِ رَسَالَتِهِ وَإِنْسَانِيَّةِ نَبُوَتِهِ . وَالْتَّيْسِيرَةُ الْمُنْطَقِيَّةُ وَالشَّهَادَةُ الْمُنْطَقِيَّةُ هُنَّ أَنَّ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ الْمُضْخَمَةُ مِنَ الْبَشَرِ قَدْ اعْتَرَفَتْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ مُرْسَلًا لِلنَّاسِ كَافَّةً ، وَلَا كَانَتْ نَبُوَتُهُ وَرَسَالَتُهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً فَإِنَّ التَّيْسِيرَةَ الْمُلْزَمَةَ وَالْمُنْطَقِيَّةَ هُنَّ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ ، بِالْإِلَاضَافَةِ إِلَى هَذَا فَإِنَّ الْحَفْاظَ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَعْلِيمَاتِ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ شَهَادَةٌ مُنْطَقِيَّةٌ عَلَى خَتْمِ نَبُوَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . هَذَا بِالْإِلَاضَافَةِ إِلَى الشَّهَادَاتِ الْعَدِيدَةِ الَّتِي لَا تَقْبِلُ الرَّفْضُ وَالَّتِي تَتَخلَّلُ جَمِيعُ مَصَادِرِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَمَرَاجِعِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَلْاحِظُ إِصْرَارُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَعَنَادُهُمْ وَتَغْاضِيُّهُمْ عَنْ جَمِيعِ تِلْكَ الْحَقَائِقِ وَالْشَّوَاهِدِ .

أما الشطر الثاني من دعواهم فتتضح حقيقته في السطور التالية :

تَبْلِيغُ الدِّينِ وَنَسْرُ الْإِسْلَامِ :

قام المستشركون وأعداء الإسلام بالهجوم هجوماً خطيراً على أهم أبواب التاريخ الإسلامي ألا وهو تبليغ الرسالة - وهي الفريضة الأساسية - فائلين بأن نشر الإسلام في العهد النبوى قد تم على نطاق محدود جداً .

وطبقاً لتفكيرهم فهم يعتبرون أن الحياة النبوية في مكة [١٣ سنة] كانت محدودة التوفيق والنجاح ، وفي خارج مكة أسلم عدد قليل جداً من الأشخاص ، وفي حياته بالمدينة [١٠ سنوات] لم يستطع أن يعطي لفريضة التبليغ حقها ؛ لأنَّه اضطر في معظم الأوقات أن يواجه قريشاً وبقية القبائل العربية ، وأن يخوض معها قتالاً مسلحاً . وعام الوفود (٦٣٠ هـ - ٦٣١ م) الذي يشهد بأن الجزيرة العربية بأكملها قد قبلت الإسلام . هو أيضاً غير مقبول لدى المستشركون ؛ لأنَّه طبقاً لتفكيرهم فإنَّ معظم القبائل العربية قد

قبلت الرفعة السياسية للدولة الإسلامية ولم تقبل الإسلام .

وقد ذهب بعض المستشرقين اليهود والنصارى إلى حد أنهم قسموا حياة الرسول الطيبة إلى قسمين منفصلين ، فجعلوه رسولا مكياً مرة ، ورسولا مدنية مرة أخرى ، ففي رأيهم أنه في مكة المكرمة يدو وકأنه رسول بینا هو في المدينة جعل من نفسه قيسراً العرب وحاكم سياسياً ؛ لأنه طبقاً لتفكيرهم الباطل هذا فإن الرسول في المدينة أنهى الرسالة وأبطل تبليغ الدين . وطبقاً لدعواهم هذه فقد قضى معظم وقته في هذه الفترة في الحرب وفي إقامة التنظيم السياسي ، وفي تكوين وتشكيل الحكومة والدولة ، ولا شك أن بعض المؤرخين من ذوى الحس والشعور يقدمون هذا العذر قائلين : ولابد أنه قام بمحاولات من أجل تبليغ الدين غير أنها انحصرت في المشاكل السياسية وطبقاً لاعتقادهم فالإسلام قد انحصر داخل القبائل المترکزة بالقرب من المدينة ومكة ، أما قبائل مثل هوازن وغطفان فقد قبلت الإسلام فقط لتنال الرفعة السياسية ، ولم تقبله لتنال رفعة دينية أو رفعة بالإسلام ، أما القبائل اليهودية والمسيحية فقد قبلت بالحاكمية السياسية فقط ، وأنكرت ورفضت تماماً فكرة تغيير الدين ، بينما لم يصل الإسلام إلى المناطق العربية الجنوبية والمناطق الشرقية ولا إلى قبائل المنطقة الشمالية الشرقية وإلى المناطق الشمالية ، وطبقاً لدعواهم تلك فإن جميع هذه المناطق إذا كانت قد سلمت برفعة المدينة وحكمها إلا أن هذا الأمر اقتصر فقط على المعاملات السياسية ، ولم تكن له أي علاقة بالدين . وعلى المسلمين أن يحملوا تاریخنا هذه الدعوى الطائشة التي يدعیها المستشرقون .

ورغم أننا حتى الآن لم نخلل تحليلاً كاملاً قضية تبليغ الإسلام ونشره في العهد النبوي مرحلة تلو مرحلة إلا أننا عرضنا عرضاً سريعاً لبعض المطالعات فقط ، ويفهم من مطالعة مصادر التاريخ الإسلامي ومراجعه أن رسول الله عليه السلام قد حالفه التوفيق الكامل في تبليغ ونشر الدين في مكة المكرمة ، فقد وجد

في أسر وبطون قريش مسلمون وكان كل بيت من بيوت مكة فيه مسلم ، وذلك قبل أن يثبت الإسلام رايته هناك بعد فتح مكة ويفهم من المؤلفات المتقدمة لابن إسحاق وابن سعد والطبرى والبلاذرى ، وكذلك الكتب المتأخرة لابن عبد البر وابن الأثير وابن حزم أن بطونا وأسرًا متعددة من قريش البطائح (بنو هاشم ، بنو مطلب ، بنو نوفل ، بنو تميم ، بنو مخزوم ، بنو زهرة ، بنو سهم ، بنو أسد ، بنو جُمُح) . وقريش الظواهر (بنو حارث ، بنو فهر ، بنو عامر ، بنو لؤى وغيرها) . قد وجد فيهم من أعلن الإسلام ، ثم كانت الأسر والبيوت المتفرعة من هذه البطون .

وطبقاً لما ورد في المصادر الإسلامية فإن الإسلام قد انتشر في معظم الأحيان بين هذه الأسر الفرعية ثم كانت البطون والأسر المتحالفه مع بطون وأسر قريش من مثل حلفاء بنى بكر حلفاء بنى عدى ، وبنى غنى حلفاء بنى هاشم ، وبنى غنم بن دودان حلفاء بنى أمية وغيرهم ، ويعرف من الروايات أن الأسر المتحالفه المذكورة كانت بأكملها مسلمة ثم كانت طبقات المولى والغلمان التي أثر فيها الإسلام تأثيراً كبيراً مثلهم كبقية الفئات الأخرى ، وقد رتب (ليون كيتاني ومونتجمري وات) وغيرهم ، قوائم بقبائل وأسر مهاجرى مكة ، ولم يضمنوا هذه القوائم بعض أسماء رجال الإسلام ، ومن العجيب أن هؤلاء الذين ينادون بحرية المرأة ومساواة المرأة بالرجل قد أخرجوا من قوائمهم أسماء النساء المسلمات والأطفال !!

السكان المسلمين في العهد المكى :

يعرف من تحليل قبائل وبطون مسلمى مكة أن عددهم حتى المضجرة إلى المدينة قد قارب الألف نسمة ، ويبدو هذا الرقم في الظاهر مبالغًا فيه ، لكن تحليل الروايات طبقاً للأصول التاريخية الحديثة يدل على أن الرقم غير مبالغ فيه . في روایاتنا العامة لا نجد بياناً كاملاً واضحاً يذكر جميع أفراد الأسرة وخاصة المسلمين فيها ، وهذا فالأمر يترك تأثيراً على المؤرخ والقارئ يجعله يظن أن

هؤلاء الأفراد فقط كانوا هم المسلمين دون غيرهم . ولكن إذا أمعنا النظر في القوة العددية للأسر فسوف نقف على العدد الأصلي لأفرادها ، وهناك حقيقة ظلت خافية بصورة عامة وهي الموالى ، فهؤلاء كانوا يعدون من أفراد الأسر كما يتضح من بيانات المؤرخين القدامى ، وهكذا يتضح من النظرة النقدية التحليلية أن أسرة الرسالة النبوية كانت تضم في مجملها حوالي خمسة عشر فردا ، بينما أسرة الصديق رضى الله عنه وأسرة الفاروق رضى الله عنه كانت تضم كل منها عشرة أفراد ، ولا يقل عدد المسلمين في أسرة كل من عبيدة ابن حارث ، وعثمان بن مظعون الجمحى ، وحارث بن قيس السهمى عن هذا العدد أيضا .

وهكذا فقى ست أسر مسلمة وصل عدد المسلمين إلى ٦٥ فردا ، ويدرك ابن إسحاق أن أسرة بنى غنم بن دودان قد ضمت من المسلمين المكين عشرين رجلا وخمس نساء ويدرك أسماءهم ، بينما يفهم من معلومات وبيانات ابن سعد وابن حزم أن عدد الأفراد البالغين منهم يصل إلى أربعين ، ويرى ابن إسحاق وابن سعد أن المجموع الكلى لل المسلمين المكين لبني غنم بن دودان وصل إلى ٣١ شخصا .

ومن الجدير بالذكر هنا أن المستشرين لم يضموا إلى إحصائياتهم المهاجرين الذين هاجروا إلى الحبشة في أوقات متتالية وأقاموا بها وعادوا إلى المدينة فقط في (٥٧-٦٢٩ م) لم يضمونهم إلى مسلمي العهد المكى . ولقد جاوز عدد المسلمين المكين بالحبشة مائة مسلم ، ومنهم من سمعت مكة بخبر إسلامه فاهتزت ، وهكذا يمكن تخمين عدد الأنفس أو عدد السكان طبقا للأصول الجديدة للإحصاء السكاني بضرب عدد الرجال البالغين في خمسة لنصل إلى العدد التقريري للسكان المسلمين .

ومن الواضح أن هذه الأصول لا تأخذ في الاعتبار تعدد الأزواج والموالى

والغلمان ، وهو ما يجعل النسبة المتوسطة للسكان في القرون الوسطى تزيد على ما هو مقرر حاليا ، ففي القرون الوسطى يجب أن يضرب عدد البالغين في (٦) أو (٧) كما ذكر (بركات) في كتابه عن الرسول الأكرم ويhood الحجاز . ومن هذه الناحية إذا أخذنا القائمة التي رتبها المستشرقون ، فإن عدد مسلمي مكة التقريري يصل إلى ما ذكرناه .

نشر الإسلام خارج مكة :

هناك خطأ شائع يتعلق بتاريخ نشر الإسلام في العهد المكي إذ اعتقد البعض أن السكان المسلمين خارج مكة المكرمة كانوا إما صفراء أو عددا لا يذكر ، بينما يتضح من الروايات التاريخية أن هذا التصور من أوله إلى آخره تصور خاطئ ، فالجميع يعرف أن من غير أهل مكة وجد أبو ذر الغفارى وإخوته التسع عشرة ، وهم من المسلمين الأوائل للعهد المكي ، لكن الحقيقة أن هؤلاء الناس لا يعرفون أن أبا ذر قبل الهجرة إلى المدينة تمكن بجهوده - التي تدل بلاشك على شغفه بالإسلام ، وعلى أن ذلك الشغف فاق كل حد - أن يدخل قبيلته كلها في كفف الإسلام ، هذا بالإضافة إلى قبيلة أسلم وهي مجاورة لهم وحليفة لهم ، فقد صارت في معظمها إن لم تكن بأكملها قبيلة مسلمة ، وطبقا لما تذكره الروايات فإن هاتين القبيلتين ضمتا على الأقل ألفي نسمة ، هذا بالإضافة إلى أن من قبائل العرب التي تعرفت على الإسلام فدخلت فيه في العهد المكي : خزاعة ، أزد ، شنوة ، وأهم بطونها دوس ، بنو أسد بن خزية ، أشعر وعبد القيس وغيرها ، وكان بعض هذه القبائل ينتمي إلى منطقة الجنوب ، وبخاصة اليمن والجزء الشرقي .

ثم لا ينبغي أن ننسى أن معظم أهل المدينة المنورة من شرروا بالإسلام إنما شرفوا به في العهد المكي ، وحتى زمان الهجرة النبوية كان معظم قبائل الأوس والخزرج بالمدينة من المسلمين الذين دخلوا في الإسلام نتيجة لجهود المبلغين

من مثل أسد بن زرارا وصبب بن عمير العبدري ، سفير رسول الله في المدينة قبل الهجرة وطبقاً لقول ابن إسحاق ، فلم يكن هناك من قبيلة أوس من هم خارج دائرة الإسلام سوى أوس منا الذين ظلوا خارج دائرة الإسلام حتى غزوة الخندق ، وكان كل بيت مدنى يبأ على الإسلام على وجه التقريب .

وهناك حقيقة هامة خفية بصفة خاصة عن الأنطارات وهي أن تشكيل الأمة الإسلامية في المدينة المنورة ، وتوسيع الدولة الإسلامية ، والنجاح والتوفيق العسكري والسياسي والاجتماعي لرسول الله ﷺ إنما كان من ثمار الكفاح الجيد للعهد المكي ، والحقيقة أن المستشرقين المغرضين والمؤرخين من أعداء الإسلام يحاولون بخبيثهم التأمر على هذا العهد المكي بالقليل من الأثر الديني للحياة النبوية في العهد المكي ، وهذه المؤامرة جزء من خططهم التي يريدون عن طريقها إثبات النظرية القائلة بأن الإسلام لم ينشر تأثيراته الفكرية وتأثيراته الدينية بنفس القدر الذي نشر به قوته السياسية أو العسكرية ، وهم يريدون أيضاً أن يوافقهم الناس على نظرتهم تلك .

ويرى بعض المؤرخين والمفكرين أن أفكار المساواة الاجتماعية في الإسلام ، وتصور الإسلام للعدالة الاقتصادية كان سبباً في نشر الإسلام ، بينما الحقيقة هي أن نشر الإسلام وبخاصة في مكة المكرمة إنما كان مرجعه إلى الجانب الديني ، أما الجوانب الأخرى فكانت كلها جوانب ثانوية .

رسول أو حاكم :

فيما يتعلق بهذا الاتهام وهو أن الرسول يبدو في مكة رسولاً بينما يبدو في المدينة حاكماً وسياسياً ، فسببه أن المستشرقين وأذنابهم حبسوا أنفسهم داخل التصور الضيق للدين ، هذا بالإضافة إلى افتقارهم إلى الإحساس والشعور التاريخي أو نقصه لدى البعض - وكذلك راجع إلى تعصبهم أو جهالتهم - ولما كان أكثر موجهى هذه التهمة من اليهود والنصارى الذين يمثل الدين لديهم

دائرة محدودة قاصرة على رسوم العبادات ، لهذا فقد نظروا إلى الإسلام في نطاق نظرتهم إلى دينهم ، بينما الإسلام دين شامل يضم جميع جوانب الحياة سواء ما يتعلق فيها بالعقيدة أو ما يتعلق بالسياسة والمجتمع أو ما يتعلق بالجيش والحكومة أو ما يتعلق بالاقتصاد وغير ذلك ، ولا يمكن لأى فرع من هذه الفروع أن تخرج عن دائرة الإسلام الواسعة .

والأصل في الإسلام أنه لا فرق بين الدين والدنيا ، فكل ما يجعلنا نغفل عن الله ونعمل خلاف أحكامه هو الدنيا ، وكل ما يدخل في دائرة أحكام الله ومرضاته هو الدين . ومن هنا وجب تحليل ودراسة الحياة المدنية لرسول الله ﷺ في ضوء هذه الخلفية لتصور الدين في الإسلام وهو تصور واسع وشامل .

ويعرف من مطالعة الحياة المدنية لرسول الله ﷺ أنه قام بتشكيل الأمة الإسلامية وتنظيم الحكومة الإسلامية طبقاً لما جاء بالقرآن الكريم وطبقاً لأحكام الله ، وكل هذا عمل ديني ، وكل ما قام به وأنجزه من خلال الغزوات والسرایا كان في سبيل تقوية الإسلام كما أن دحض الكفر وهزيمته إنما هو من الأعمال الدينية .

ورغم كل هذا فالحقيقة الواضحة أمام الجميع أنه ﷺ خلال كفاحه العسكري ، والسياسي لم يصرف النظر ولم يتقاوم عن بذل جهده في سبيل تبليغ الدين ونشره ، ويعرف من الروايات أنه بعد الهجرة مباشرة قام بدعوة القبائل اليهودية وبقية قبائل العرب من غير المسلمين على السواء ، وأرسل جماعات لتبليغ الدين في مختلف المناطق ، ومنها سرية مؤتة وسرية الرجيع وسرية ذات الملاح ، وغيرها من السرايا التي تلخصت مهامها في نشر الدين .

لقد ارتكزت خطته ﷺ في القيام أولاً بدعوة الفريق الذي يحاربه إلى الإسلام ، وكانت هذه هي السنة التي مضى عليها الصحابة الكرام ، وكان

رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام أثناء الحرب والنزال ، أو بعد الغزوات . وهناك أمثلة عديدة على ذلك ، كما كان يدعو أسرى الحرب إلى الإسلام ، وقد تأثر الكثير بحسن سلوك رسول الله ودعوته ، فأعلنوا إسلامهم . كم دخل من أنس في الإسلام في فتح مكة ، وفي غزوة حنين والطائف !! لقد أسلمت جميع القبائل الجنوبية الشرقية عن طريق الدعوة والتبليغ ، وفي عام الوفود ، حين قدم ممثلو القبائل من كل أركان الجزيرة العربية ، ليعلنوا إسلامهم ، وليصبحوا لا مسلمين فقط ، بل مبلغين لدين الله ، يدعون قبائلهم لدخول الإسلام . وطبقاً لإرشادات رسول الله كان جميع ولاة الحكومة الإسلامية ، وقضاتها وعمرها وأعضائها أساساً من المبلغين والمعلمين ، وكان هذا أول فرض واجب على هؤلاء الولاة والحكام جميعاً .

والخلاصة أن النظام النبوى بأكمله سواء كان سياسياً أو عسكرياً ، اجتماعياً أو اقتصادياً ، كان محوره ومركزه هو الإسلام وتبليغ الإسلام ، وكان هذا هو السبب في أنه عند حجة الوداع كان في ركب رسول الله ﷺ وفي عرفات ١٤٠٠٠ [مائة وأربعون ألفاً] مسلماً ، وهناك أضعافهم كانوا داخل بيوتهم مشغولين بذكر الله . والحقيقة أن خطة تبليغ دين الله وطريقة التبليغ قد تغيرت طبقاً للظروف الجديدة في المدينة المنورة . واتهام المستشرقين إنما يقوم فقط على أنهم لا يريدون أن يفهموا سواء عن عمد أو عن غير عمد هذه السياسة النبوية ومتغيراتها . واتهامهم الثاني يقوم على أن أكثر القبائل العربية ، بالإضافة إلى يهود ونصارى المناطق المختلفة لم يقبلوا الإسلام ورفضوه ، بل لم يعترفوا بالتفوق السياسي للإسلام ، ولا شك في أن بعض القبائل في المناطق البعيدة والمناطق الساحلية ومناطق الحدود لم تدخل في الإسلام ، ولكن لا يمكن أن يقال إن الإسلام لم يصل إليها أبداً ؛ ففي داخل مثل هذه القبائل جميعها كانت تدور معركة بين الإسلام والكفر ، إذ أسلم بعض بطونها وأسرها فيما كان البعض الآخر لا يزال قائماً على مذهبة القديم ، ولما كان معظم هذه القبائل من

المسيحيين لم يسمح تعصب المستشرقين لهم أن يعترفوا بتلك الحقيقة الدالة على أن أهل دينهم من المسيحيين قد قبلوا الإسلام بكل سرور وبكل إخلاص ورضا . والتحليل الكلى يخبرنا أن الأغلبية العظمى للقبائل العربية قد قبلت الإسلام ودخلت في كنفه ، ولم يعد خارج هذه الدائرة سوى بعض الفئات والأفراد من كانوا يعيشون في المناطق الحدودية .

وبديهي أن رسول الله ﷺ لم يكن مطالبًا من رب العزة آنذاك أن يدخل أهل الدنيا كلهم في الإسلام ، بل كان عليه آنذاك أن يدخل مجموعة كبيرة من البشر في كنف الإسلام ، لتقيم مثلاً عملياً أمام الناس ، وهو ما قام به رسول الله ﷺ ، فقد بلغ رسالته إلى جميع أفراد البشرية . والآن فإن على هذه الأمة الإسلامية مجتمعة تقع فريضة نشر الإسلام وعليهم أن يبلغوا الناس جميعاً به !!

بناء الدولة الإسلامية :

أظهر المستشرقون والمؤرخون الجدد خطأين كبيرين فيما يتعلق بالدولة والحكومة الإسلامية : الأول هو أن الدولة الإسلامية لم تشمل جميع شبه الجزيرة العربية ، وكانت محصورة في مركز أو وسط الجزيرة العربية ، والخطأ الثاني هو أن الدولة الإسلامية كانت قائمة على النظام القبلي القديم للعرب ، وفيه كانت تفتقد إلى المركزية .

وفيما يتعلق بالخطأ الأول ، لو استعرضنا التاريخ الإسلامي فسوف نعرف أنه في المجتمع المدني وبعد الهجرة ، فإن الدولة الإسلامية التي قامت ونشأت كانت منذ البداية دولة مدنية ، ثم بعدها ونتيجة للمهمات الأولى التي أرسلاها الرسول ، ونتيجة لمعاهدات الصلح والتفاهم مع القبائل المختلفة والصحفية النبوية والغزوات والسرايا ، بدأت الدولة تتسع تدريجياً في جميع الجهات ، وبعد غزوة بدر انتشرت وتوسعت بسرعة جهة الحدود الغربية ، وإن كان توسعها

وانتشارها قد قل قليلاً حتى أيام غزوة الخندق إلا أنه بعد غزوة الخندق ، بدأت الدولة توسيع حدودها بسرعة ونتيجة لغزوة خيبر ، وصلت حدودها من ناحية الشمال إلى مدى بعيد ، وبعد فتح مكة وفتح حنين وغزوة الطائف ضمت إليها المناطق الشرقية والقبائل الجنوبية ، وبعد خضوع قبائل العرب أصبحت الدولة الإسلامية تضم شبه الجزيرة العربية بأكملها ، واعترفت جميع القبائل العربية والمناطق العربية بتفوق المدينة وسلطتها والدليل التاريخي الذي لا يقبل الاعتراض والشك ، هو أن القبائل التي أسلمت قد قبلت مسؤولية أداء الزكاة والصدقات ، بينما قبلت الفئات غير المسلمة دفع الجزية والخارج ، وظلوا بكل إخلاص وإيمان يحافظون على عهدهم في أدائهم ، هذا بالإضافة إلى أنه فيما يتعلق بجميع المعاملات السياسية والظامانية كانوا يطبقون أحكام رسول الله ﷺ ، ونكتفى هنا بذكر مثالين فقط :

كان بنو تغلب ، ونصارى ويهود القرى الشمالية يؤدون الجزية والخارج ، بل عرض هؤلاء دفع الزكاة مضاعفة بدلًا من الجزية ، عرضوا هذا بأنفسهم ، وهو ما لم يقبله رسول الله ﷺ ، والأهم من ذلك أن نصارى نجران لم يسلموا فقط بأداء الجزية ، بل وافقوا على شرط التوبة من العمل بالربا ، هذا بالإضافة إلى أنهم التزموا بالعمل طبقاً للأحكام النبوية الأخرى ، وهذه دلالة عملية على ما كان للدولة الإسلامية والحكومة الإسلامية من عامل مؤثر .

يتأكّد من البحث السابق أيضاً أن دولة رسول الله ﷺ وحكومته كانت قائمة على أصول مركبة ، بينما كان النظام والشكل السياسي للعرب قبل الإسلام قائماً على نظام قبلي خالص . ففي النظام الجاهلي كانت كل قبيلة ، بل كان كل بطن يمثل بنفسه وحدة سياسية تقوم في داخلها وبطريقة مستقلة بتسير جميع أمورها الداخلية والخارجية بطريقة حرة لا يتدخل فيها أحد ، أما في دولة رسول الله ﷺ ، فقد كانت له السيطرة وكان له الحكم على جميع القبائل

والمدن المرتبطة بالمدينة المنورة . وكان على كل فرد من أفراد الدولة الإسلامية أن يطيع جميع الأحكام التي يصدرها رسول الله ﷺ بالمدينة ، فالMuslimون كانوا يعتبرون إطاعة رسول الله فريضة دينية تضم أيضا الوفاء السياسي وكانت فريضة الطاعة هذه قلادة يرتديون بها دائما ، بينما سلمت الفئات الأخرى من غير المسلمين واعترفت بسلطنة الرسول السياسية عليهم . فأطاعوه وخضعوا لأحكامه ، وليس هذا فقط بل قام ﷺ عين حاكما له في جميع أنحاء البلاد ، وعلى جميع قبائل ومناطق شبه الجزيرة العربية ، حتى يقوم بتنفيذ قانون الله وتسيير نظام الحكم الإسلامي في البلاد ، وكان هؤلاء الحكام النبويون على طريقتين ؛ حكام مركزيون وحكام محليون . وكان الرسول يعينهم ويعيرهم ويعزّلهم ، بصفته الحاكم الأعلى ، وكان جميع العمال والحكام المركزيين في الأقاليم وفي القبائل ممثلين للحكومة الإسلامية وعملاً لها ، مع أن نظام الحكم النبوى لم يكن ليضم أصول التقسيمات الخاصة بالمسؤوليات طبقاً للعصر الحاضر إلا أننا سنعرضه بنفس الشكل الحديث حتى يمكن فهمه .

تنظيم الحكومة :

أسس رسول الله ﷺ نظاما عسكريا ، ونظاما مدنيا ، ونظاما ماليا ، وكانت مسؤولية أو منصب القائد الأعلى في نظام الجيش من نصيبيه عليه الصلاة والسلام ، وكان القائد العام المستقل ، ولم يكن في وجوده لأى قائد آخر ، إلا أنه طبقاً لبعض الظروف ، وانطلاقاً من فكرة تربيته للأمة ، فقد كان ينقل مسؤوليات جيشه إلى نوابه ، مثلما حدث في الغزوات حين كان ﷺ قائداً عاماً للجيش قرر أن يعين له بعض النواب للقيادة داخل النظام الذي سمي « خميس » إلى تقسيم الجيش إلى خمس مجموعات : المقدمة ، الميمنة ، الميسرة ، القلب ، والساقة ، عين رسول الله قادة لجميع أقسام الجيش عدا « القلب » ، ومن الواضح أنهم جميعاً كانوا يلتزمون بأوامره وإرشاداتيه ،

ويخضعون لحكمه ودستوره ، وفي السرايا كان يعين قائدا للجيش الإسلامي نائبا عنه ، وقد وصل عدد هؤلاء طوال العهد النبوى إلى ٧٤ قائدا ، وكان تعينهم يتم طبقا لما لهم من كفاءة ولياقة ، وطبقا للظروف والملابسات الحبيطة بالمواقف ذاتها لا طبقا لعوامل تتعلق بالقبيلة أو النسب أو الحسب أو ما إلى ذلك ، بالإضافة إلى ذلك فيما يتعلق بتعيين ضباط الجيش الآخرين ، فقد عين رسول الله أصحاب الألوية ، ضباط الطلعان ، العيون ، الدليل ، أصحاب المغام والأسرى ، أصحاب السلاح والفرس ، والضباط مخافذ المجموعات .

وتم تقسيم النظام المدنى إلى نظام مركزى ونظام إقليمى ، وداخل النظام المركزى احتل خلفاء الرسول المكانة الأهم ، فكانوا يتولون الإشراف على أمور الأمة في غيابه ، وبعدهم يأتى المستشارون والكتبة وسفراء النبي ، وشخص بعض « الضباط » لتصفية القضايا ، والوقوف على الأمور الخاصة . وكان للشعراء والخطباء مكانة هامة أيضا ، فقد كانوا يدافعون عن الدولة الإسلامية عن طريق الإعلام والدعية الصادقة ، وكان أهم مسئول في الأقاليم الحكومية هو الوالى أو الحاكم الذى كان يعين ويرسل من المدينة المنورة ، وكان في الأصل مثلا للسلطة المركزية لدى أهل القبائل وفي الأقاليم ، وقد ورد ذكر تعيين ٣٢ حاكما (واليا) في ٢٦ إقليم أو ولاية ، وكان يساعد الحاكم أو الوالى مسئولون ملhiون وكانوا بصفة عامة من شيوخ القبائل ، وعلاوة على ذلك كانت هناك بعض المسؤوليات والمناصب التي يتولاها بعض المسؤولين في الحكومة المركزية وفي الأقاليم أيضا مثل الحاجب وغير ذلك ، وكانت شئون الحكم تدار بالتعاون بين المسؤولين المحليين والإقليميين ومسئولي الحكومة المركزية ، وكان جميع هؤلاء يقومون بإدارة شئون البلاد تحت إشرافه عاصي الله وطبقا لإرشادات الأحكام القرآنية .

وفي النظام النبوى كان نظام المالية يضم عدة مناصب ومسؤوليات ؟ ففى الحكومة المركزية كان هناك عمال الصدقات المركزيين ، كما كان هناك في

الأقاليم وفي المحليات كلّيهما عمال محلّيون يقومون بتحصيل الزكاة والصدقات من المسلمين وجمع الجزية والخراج من غير المسلمين ، ويجمعونها لدى الوالي أو الحاكم ، وكان عمال الصدقات المركزيون يقومون بإرسال نصيب الحكومة المركزية — الذي كان يشتمل على الحمس — إلى المدينة المنورة . ومن الواضح أن عمال الصدقات المركزيين كانوا يقومون بإيصال صدقات المناطق المركزية إلى المدينة المنورة وما حولها من مناطق خاضعة لها ومن بين المسؤولين كان هناك من يقوم على الإنتاج كأعمال الخرس / الخراص ، وأصحاب الحمى [الأول على الزراعة والإنتاج والثاني على المراعي] .

ونتساءل ... أى علاقة لنظام الحكم المركزي المفصل هذا الذي مضى على نسق ثابت ومحدوّد من النظام القبلي للعصر الجاهلي ؟ لقد كان رسول الله من حيث كونه مبلغا عن الله هو الحاكم الأعلى للدولة الإسلامية جمّيعها ، ولهذا كانت مركبة حكومته ودولته أمراً لازماً وشيئاً منطقياً ظهر ووضّح في شكل تطور الإدارات السياسية . أما النتيجة التي وصل إليها المستشرقون ، والتي تقول إن حكمه عليهما السلام كان مبنياً على أساس النظام القبلي فقد اشتملت على نتائج خطأه ، حقاً لقد استفاد عليهما السلام إفادة كاملة من بعض هيئات النظام القبلي القديم . وقد أقرّها ما دامت ذات فائدة ، إلا أنه أسس دولته وحكومته على أصول المركبة ، وأكبر دليل على مركبة النظام هو الوحدة السياسية التي شملت شبه الجزيرة العربية كلها ، وهي الوحدة التي تحققت لأول مرة للعرب في ظل الإسلام و محمد رسول الله ، وكانت مركبة الحكم والدولة من ثمار كون الإسلام دينًا وسياسة معاً أي دين ودولة ، دنيا وأخريّة معاً .. و هكذا وبعد وفاة رسول الله عليهما السلام بعده سنوات أظلّ الإسلام جزءاً كبيراً من العالم ، وشملت حدود الدولة الإسلامية منطقة شبه الجزيرة العربية ومناطق أخرى تمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب .

الخلافة الرشيدة

(١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦١ م)

قيام مؤسسات الخلافة :

انتقل الرسول الأكرم إلى الرفيق الأعلى في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ ٢٠ يونيو سنة ٦٣٢ م ، وبعد وفاته كان من الضروري أن تظهر هذه القضية إلى الوجود وهي : من سيخلفه ؟ وما هي حقوقه ومسئولياته ؟ وما هي حدود عمله ؟ ولأن رسول الله ﷺ لم يعين في حياته خليفة له ، كان من الضروري أن تبرز هذه القضية ، ويشار هذا السؤال ، ثم إنها ﷺ كان خاتم الأنبياء وخاتم الرسل ولا يمكن لأى شخص أن يكون رسولاً أو نبياً بعده ، وهذا كان من الواضح للأمة كلها ، أنه ما عدا مسئولياته النبوية التي نالها ﷺ من حيث كونه رسول الله ، فإن جميع المسؤوليات الأخرى كان من يخلفه أهلية القيام بها .

لقد ظهر اختلاف في الرأي بين الصحابة الكرام على من يخلفه ، وهذه مرحلة ضرورية وحتمية في تطور أي مؤسسة أو إدارة ، إلا أن الأمة اجتمعت على ما فيه خيرها ووجدت الحل الأمثل لقضية الخلافة ، ووصلت إلى قرار لا يمكن أن يكون هناك ما هو أحسن منه لصالح الإسلام ، ففي اجتماع سقية بنى ساعدة ، وبعد بحث كافٍ تم انتخاب أبي بكر الصديق بالإجماع ليكون أول خليفة للنبي ﷺ ، وكان أقرب الصحابة إلى النبي وأداهم له وأكثرهم تضحية ولم يكن في الأمة من هو أحق بهذا الحق منه .

ولقد حاول معرضو المؤرخين والمتآمرون مسخ الأحداث المتعلقة بمؤسسات الخلافة ، بداية الخلافة ، اختلاف الصحابة الكرام ، وانتخاب الخليفة الأول ،

بل ووجهوا هجوماً عنيفاً عليها ، وقد حاول هؤلاء المؤرخون أن يجعلوا من اختلاف الأمة على من يختلف الرسول صراعاً طبقياً ، وفي رأيهم أن الأمة الإسلامية انقسمت بعد وفاة النبي إلى ثلاث مجموعات متحاربة متناحرة ، وهم : المهاجرون ، الأنصار ، وأصحاب النص والتعيين ، وكل طبقة من هذه الطبقات كانت تريد أن تحصر الخلافة فيها ، والطبقة الأخيرة كانت تريد أن تجعل من على رضى الله عنه خليفة بناء على حق الولاية ، وعلاوة على هذه الطبقات الثلاث كانت هناك جماعة بني أمية والذين كانوا يرون لأنفسهم شرفاً سياسياً واجتماعياً داخل المجتمع العربي ، كما كانوا ولا شك يحملون بأن يتولوا حكم العرب إلا أن التاريخ الإسلامي قد أثبت أن رسول الله عليه السلام قد ترك لأصحابه قضية خلافته ، وكانت هذه حكمة عالية نبت من روح الإسلام .

والبحث الذي دار في سقية بنى ساعدة لم يكن نتيجة تخريب سياسي أو تكيل فخرى بل هو دليل على إبداء جميع الأفكار والنظريات ، فالأنصار بما قاموا به من تصريحات يرون أنفسهم أحق بالخلافة بينما مثلو المهاجرين يريدون أن يجسم الأمر في ضوء المصلحة الأهم للأمة ، وفي النهاية يتفق الأنصار مع وجهة نظر المهاجرين في هذا الأمر ، وقد ظل الأنصار طوال عصر الخلافة الرشيدة وحتى العصر الأموي والعباسي يبحثون عن الحق من أجل الوصول إليه لا من أجل هوى النفس كما يحاول المؤرخون المغرضون إثباته ، وفيما يتعلق بالفتين المذكورتين أخيراً (أصحاب النص والتعيين والأمويين) فلم تكن لها وجود كجماعة أو طائفة سياسية في تلك المرحلة التاريخية ، أما التكيل فهو أمر وقع في القرن الرابع .

ومن الملاحظ أن نظرية المؤرخين السابقة إنما تعرض فقط من أجل إعطاء صورة تعبير عن اختلاف الأمة ، ومن أجل تصوير الاختلاف على أنه صراع

طبقى ، وذلك لمسخ التاريخ الإسلامى .

وهناك كاتب جديد هو « البروفسر خورشيد أحمد فاروق » قام بتشويه التاريخ الإسلامى — عن قصد أو عن غير قصد — إلا أنه للوصول إلى نتيجة يبغىها استخدام مراجع ومصادر خاطئة وروايات غير صحيحة ليصل في بحث من أبحاثه إلى أن ثلاثة من كبار رجال الأمة : أبا بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وأبا عبيدة الجراح ، أعدوا خطة حكمة لتكون الخلافة في قبيلة قريش فقط دون غيرها ، على ألا تجتمع الخلافة والنبوة في أسرة واحدة من قريش أى بنى هاشم ، وأن يُحرم منها أنصار المدينة .

وتحليل هذا الكاتب تحليل ضعيف قائم على روايات موضوعة ونتائج فاسدة ، وهو ينظر إلى التاريخ الإسلامى كله من زاوية قائمة على العصبية وقد أشار إلى أن الرسول ﷺ قد اختار بعض بنى هاشم ليتولوا مناصب في الدولة مع أنهم في العهد النبوى كله لم ينالوا سوى أربعة مناصب ومسئولييات عارضة ، وهؤلاء هم : حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن أبي طالب ، وأبيه ، ونوفل بن حارث ، وكانت تلك المسؤوليات قيادة الجيش أو شيئاً من هذا القبيل . وفي مقابل ذلك نال غيرهم من بنى أمية والخزرج والأوس وغيرهم مناصب أكثر ، ومن موالي بنى هاشم تولى زيد بن حارثة وابنه أسامة ونضير ، بنو قريطة) والأراضى الزراعية في خير وفك وتماء ووادى القرى .

وجميع بنى هاشم وموالى بنى هاشم من تولوا مناصب في الحكم إنما تولوها بناء على ما يتمتعون به من كفاءة واستحقاق لا بسبب تحيز أو ترجيح على أحد ، والكاتب المذكور يذكر من في الأراضى ، الخدائق السبع التي وهبها مخيرق اليهودى وأملاك قبائل اليهود الذين نفوا من المدينة (بنو قينقاع ، بنو نضير ، بنو قريطة) والأراضى الزراعية في خير وفك وتماء ووادى القرى .

ويذكر الدخل والخارج الوارد منها . وصحيح أن أفراد بنى هاشم قد نالوا نصيبهم من هذه الأموال مثلهم في ذلك مثل غيرهم ، وصحيح أيضا أنه تقرر نصيب من خمس أموال الغنائم لفقراء بنى هاشم ، إلا أن هناك بالإضافة إلى ذلك بعض الحقائق التي صرف الكاتب نظره عنها وتجاهلها ، فلو أن نصيبيا من خمس الغنائم كان قد خصص لبني هاشم فإن نصبيين منها قد خصص لفقراء المسلمين ولشراء الأسلحة ، كما أن دخل في الأرض لم تtle بنو هاشم فقط بل استفاد منه جميع طبقات الأنصار والمهاجرين ، ثم إن هذه ليست صدقات ، إذ كان لها مصرفها الذي تصرف فيه . طبقا للضرورات ، كما أن ابن إسحاق ، والواقدي ، وابن سعد ، والطبرى وغيرهم وجميع المؤرخين الأوائل وكتاب السوانح ، وكل من كتبوا عن الخارج والأموال من مثل أبي يوسف وابن قدامة ويحيى بن آدم وأبي عبيد قاسم بن سلام وغيرهم ، توضح من كتاباتهم أن جميع طبقات المسلمين كانت مستفيدة من جميع الأرضى والأموال .

إن النقد التاريخي والتحليل التاريخي يستلزم أن نقوم مع تحليلنا للدخل بتحليل المصرف والنفقات أيضا ، حتى يمكن تحليل الداخل والمنصرف ، أو حتى يمكن أن نخلل تحليلنا صحيحا تجميع الثروة والحصول عليها .

ويشهد التاريخ أن جميع الطبقات الغنية بين الصحابة الكرام قاموا بإنفاق نصيبيهم (أسهمهم) كلها على ضرورات وحاجات الأمة بدلا من إنفاقها على أنفسهم وعلى أسرهم ، والتحليل الاقتصادي للكاتب المذكور إنما ارتكز على الإفراط والتفرط وأخذ شكلا متعصبا ، واتجه إلى مسخ المصادر التاريخية وهذا جزء من خطة معينة يهدف إليها .

وهذا هو الحال في الاتهام الذى قال فيه : إن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة قد أعدوا خطة ، أو أحاكوا أنواعا من المؤامرات لقصر الخلافة على قريش

وحرمان أسرة النبوة وأنصار المدينة منها . ولاشك أن صدى نظريات المستشرقين يُسمع واضحاً في فكرة الفجح هذا . وقد قال «وليم مور» و «فيليب حتى» و «ديغلى» وجميع المستشرقين تقريراً بمحاكاة مؤامرة هؤلاء الصحابة الثلاثة للقبض على الخلافة ، كما اعتبروا انتخاب أبي بكر في سقيفة بنى ساعدة هو الحصولة النهائية لهذه المؤامرة ، كما أن هؤلاء المؤرخين يوجهون التهم أيضاً القائلة بحرمان أنصار المدينة من حقهم المشروع .

يقول خورشيد حول أحداث سقيفة بنى ساعدة : «قرر قادة الأنصار تعيين سعد بن عبادة الخزرجي خليفة لرسول الله ﷺ وعقدوا اجتماعاً لإعلان قرارهم هذا ، اشترك فيه سعد بن عبادة وبقية أكابر الأنصار ». وبعد أن يذكر خطبة سعد بن عبادة يقول : «سأل بعض قادة الأنصار ، لو رفض مهاجرو قريش مطلبهم هذا ، واستشاطوا لهذا المطلب قائلين بأن الخلافة حق لهم ، فماذا يجب على الأنصار أن يعملاً ؟ وبعد نقاش طويل وقيل وقال صدر قرار يتلخص في أنه يجب على الأنصار حينئذ أن يطالبوا بأن يكون الخليفة مرة قرشى ومرة أنصارى » .

وعندئذ وهنا يقوم المؤرخ المذكور باقتباس خطاب حباب بن المنذر من الطبرى وهو الخطاب الذى يتضمن الفقرة الشهيرة : «فمنا أمير ومنهم أمير» .

وبعد أن يحيل القارئ إلى غليان الأنصار كرد فعل لرد عمر الفاروق عليهم رداً مفحماً ، يقوم الكاتب فينقل رد حباب بن منذر عن ابن أبي الحديد وكتاب الإمامة والسياسة ، وهو الرد الذى قال فيه يجب إخراج قريش من المدينة والاستيلاء على الخلافة ويزداد النقاش الحاد بين الفريقين ويشاهد هذا أحد قادة الخزرج المتأذين وهو بشير بن سعد فيقوم بتأييد قريش في خطاب يلقيه بين الناس ، وحين يرى أبو بكر أن مجرى الأمور يتغير ، يقوم بترشيح زميلين له من قريش ليكون أحدهم خليفة ، إلا أن عمر يذكر أفضلية أبي

بكر وتفوقه على الجميع ، فيشير بالبيعة فجأة ، إلا أن بشير بن سعد يسبقه ويبيأب أبو بكر ، ثم يقوم الفاروق ، ومن بعده الصحابة الآخرون ، فيبيأبون أبو بكر ، ويقوم زعيم الأوس أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرَ نظراً لحوفه من الخزرج ، يقوم هو وجميع رؤساء قبائله كلهم فيبيأب أبو بكر ولم يبق سوى سعد بن عبادة الذي لم يبيأبه .

والكاتب يوزع اتهاماته على الجميع فيتهم بشير بن سعد الخزرجي بالحسد والغيرة ، ويتهم أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرَ وأكابر الأوس بالتعصب القبلي ، ويتهم عمر ورفاقه بالتأمر والتخطيط ، ويتهم الخليفة الأول باغتصابه حق بني هاشم وعدم التعاون معهم .

ويركز الكاتب المذكور كل جهده على نقطة هامة بالنسبة له وهي كيف يثبت أن البحث والجدال الذي دار بين الصحابة في نقاش قضية الخلافة إنما هو اختلاف وتفرقة بين الأمة ومن هنا استخدم كل وسيلة وكل سبيل لإثبات ذلك ، فهو يقول بأن بني هاشم قد أجرموا لأنهم تحرزوا من بيعة الصديق ، بينما جميع الروايات توضح أن ثلاثة أو أربعة أفراد فقط هم الذين امتنعوا عن بيعة . وأصبح رواية من هذه الروايات هي الرواية التي تقول بأن علياً رضي الله عنه وجميع رفاقه وأصحابه حين سمعوا خبر خلافة أبي بكر قاموا ببياعته ، وقد قام رضي الله عنه وخرج من بيته في الحال ولم يكمل وضع ثيابه على جسمه حتى لا يتأخّر عن البيعة .

أما قضية الفدك وأراضي الفيء الأخرى فقد اختلف أبو بكر في البداية مع فاطمة رضي الله عنها في مسألة الوراثة والتركة ، وبعد أن تحدث معها وناقشها رضي وانشرح صدرها ، ولم تطلب شيئاً بعد ذلك ، وفيما يتعلق بقضية أنصار المدينة ، يتضح من الروايات أنهم أنفسهم أحسوا بضعف موقفهم ، وأعطوا الحق لقريش ، ليس فقط بناء على أنهم قبيلة رسول الله ،

بل لأنهم كانوا يعرفون ما قدموه من خدمات دينية وتضحيات . وكانوا على علم بتلك الظروف والعوامل التي يمكن أن تجعل الجزيرة العربية كلها تعترف بحكم قريش وولايتها ، وهذا هو السبب الذي جعلهم يعترفون بأفضلية المهاجرين وتفوقهم حين ذكرهم أبو بكر بدقة الموقف وحساسيته ، ولا شك أنهم كانوا في البداية يتمسكون أن يشاركون في السلطة العليا عن طريق اقتراحهم الذي يهدف إلى المصالحة ، وهو الاقتراح القائل : « فمنكم أمير ومنا أمير » ، و xorشيد جعل هذه الفقرة أمامه ، ورأى أنها تدل على انتقال السلطة بين قريش والأنصار ، وأنها تعنى المشاركة في الحكم والسلطة ، ثم هو من ناحية أخرى يرى أن اقتراح بشير بن سعد الخزرجي وأسيد بن حضير الأوسى مخالف للأنصار وفي صالح قريش ، ومن ناحية أخرى يدعى أن جميع قادة الأنصار أرادوا أن ينصبوا سعد بن عبادة الخزرجي خليفة ، وحين لم يوقفوا في ذلك لم يرضوا فقط بال الخليفة الأول ، بل اتبعوا سياسة عدم التعاون معه طول مدة خلافته .

إن الشعور التاريخي والإحساس التاريخي للكاتب لم يوقفه ولم يمنعه من الحصول على معلومات من مراجع ضعيفة متحيزه زائفة ، قدم على أساسها نظرياته فجاءت فاسدة ، إن المؤرخين يتذمرون جميعاً على أن ابن أبي الحديد واليعقوبي من مؤلفي الشيعة ، لهذا فرواياتهم في حق الخلفاء الثلاثة غير مقبولة أساساً ، شريطة لا تتصادم مع المراجع الأخرى . والأمر الثاني أن يتفق المؤلف مع روایات كتاب « الإمامة والسياسة » وهو كتاب مزيف ، وحين يحيل القارئ إلى روایات الطبرى فهو يأخذ جانب التحييز ولا يتبع أسلوب الحيدة ، إنه يأخذ الروایات التي تحقق مطلبها فيذكرها ويصرف نظره ويتجاهل عن الروایات التي تخالف نظرياته ، وأكبر جرم في كتاباته التاريخية هو أنه ينسب إلى أفراد وطبقات الأمة أعمالاً ونوايا لا يمكن أن يجد مصدرها أو مرجعاً

يؤيدوها ، ثم إنه يقوم بتوجيهاته اتهامات سطحية ساذجة ركيكة إلى الصحابة الكرام خلال تحليله التاريخي ، إن دلت على شيء فإنما تدل على ميوله الشخصية وما طبع عليه .

والهدف الأساسي للكاتب المذكور هو أن يوجه الطعن لأهم واقعة في التاريخ الإسلامي ، وهي الواقعة التي خرج منها الإسلام متتصرا ، ونجا مما أحيل له من مؤامرات .

بعد أن اتضحت الصورة الأصلية من خلال عرض وتحليل جميع المصادر التاريخية ، اتضح لنا أن فاجعة وفاة الرسول كانت صدمة مفاجئة ومحيرة ، لدرجة أن عمر الفاروق هذا الرجل صاحب الإرادة الحديدية وصاحب الفكر الثاقب قد أصيب بالحيرة والدهشة ، كما اجتاحت المدينة كلها شعور غريب ، وأبو بكر الصديق يسمع بخبر وفاة الرسول فلا يصدق ، وبعد أن يصدق خبر وفاة النبي ، ألقى خطبته الشهيرة بالمسجد النبوي ، تلك الخطبة التي أعادت للناس هدوءهم وتفكيرهم ، ثم بدأ تجهيز رسول الله عليه وتكفينه تمهيداً لدفن جسمانه الظاهر وفي تلك الأثناء كان اجتماع سقيفة بني ساعدة حيث يدور النقاش في قضية من يخلف رسول الله . وحين طال النقاش وشعر النعمان بن بشير الخزرجي بخرج الموقف ، خرج لإخبار المهاجرين بألا يتخدوا ما يسيء للموقف أكثر ، وحضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة مع بعض المهاجرين الآخرين ووصلوا إلى سقيفة بني ساعدة حتى لا يسمحوا للموقف بأن يطول أكثر ، وتشهد الروايات بأن جموع الأنصار أظهروا سرورهم بوصولهم هناك ، فعرض الأنصار وجهة نظرهم ، وقدموا الدلائل المؤيدة لحتمهم ، فامتدح أبو بكر مآثرهم وتضحياتهم التي قدموها للأمة ، إلا أنه بناء على عدة أسباب ودلائل فإن لقريش الأفضلية ، واتفق الأنصار على ذلك ، ولما قدم الأنصار اقتراحهم على أساس جعل الخلافة مشاركة بين قريش

والأنصار ، ورأى أبو بكر أن هذا أمر لا يمكن العمل به ، قدموا اقتراحًا بديلا ؛ وهو أن تكون الإمارة في قريش والوزارة في الأنصار ، ثم أسمعوا إرشاد النبي أن يكون الإمام والحاكم من قريش . وحين سمع الجميع الإرشاد النبوى حفظوا رؤوسهم ، وحينئذ قام أبو بكر فأخذ بيده أخوه من المهاجرين ، واقتراح البيعة لأحددهم ، إلا أن عمر أعلن أن لأبي بكر الأفضلية ، وأشار بيده طالبا أن يبايع الجميع أبا بكر ، وعليه قام جميع الصحابة الموجودين فبايعوا أبا بكر ، وطبقاً لرواية أخرى فإن عمر ذكر فجأة موضوع البيعة هذا ، إذ لم يكن هناك أى تفكير مسبق في عقد الخلافة على أبي بكر ، وبعدها صعد أبو بكر إلى المنبر في المسجد النبوى لأنه لم يشاً فقط أن يحصل على تصديق الأمة الذى حصل عليه ، بل ليسمع وليأذن للأمة بأن تنتخبه ، لأنها لم تكن قد انتخبه بعد . وهكذا أجمعت الأمة على مبايعته بالخلافة .

فتنة الردة :

بعد وفاة رسول الله ﷺ ، أُعلن العصيان في بعض مناطق الجزيرة العربية ضد الإسلام ومركز الإسلام « المدينة » ، وهو العصيان الذي أطلق عليه المؤرخون المسلمين « الردة » أو « الارتداد » .

وقد حاول المستشركون بصفة عامة ، والمؤلفون المحدثون بصفة خاصة ، اعتبار فتنة الردة هذه عصياناً سياسياً ورغبة تحرر طبيعية لدى قبائل العرب ، ورغبة في التحرر من التسلط السياسي والعسكري لخلافة الصديق وسيطرة المدينة . والمستشركون — طبقاً لأسلوب فكرهم الخاص — قالوا إن هذه الحركة كانت رغبة ومحاولة للحصول على الحرية ، ويررون أن إطلاق اسم « ردة » أو « ارتداد » عليها إنما هو خطأ ، وذلك لأنه إذا أطلقنا هذا الاسم

على هذه الحركة المعادية للإسلام فإنه يستلزم أن يكون العصابة قد أسلموا قبلًا ثم تركوا الإسلام بعد وفاة النبي . والمستشرقون لا يريدون أن يعترفوا أن شبه الجزيرة العربية كلها كانت خاضعة لراية الإسلام في العهد النبوى ، ففي ظنهم أنه لم تكن هناك قبيلة مسلمة سوى مهاجري قريش وأنصار المدينة وبعض القبائل في وسط الجزيرة ، أما بقية القبائل العربية فقد قبلت بالتفوق السياسي للمدينة والرسول ، وبعد وفاته أرادت أن تخلص من هذا الخصوص ، ومن هنا حاولت أن تتحرر من سيطرة المدينة وتناول استقلالها القديم .

ولم ينكر المستشرقون فقط أن قبائل المنطقة الحدودية (بالجزيرة العربية) قد قبلت الإسلام ، بل إن من يعيشون في ركابهم من مثل خورشيد أحمد فاروق ينكرن أيضًا أن قبائل المنطقة المركزية (وسط الجزيرة) والعرب الوسطى قد قبلت الإسلام ويقول :

« كان أول هدف عسكري خطير ، وأقرب هدف عسكري خطير ، وأهم هدف عسكري خطير أمام أبي بكر هو نجد ، حيث كانت تسكن قبائل ذات حال حسن إلى حد ما ، ومتمدنة ومتتحدة ، منها عامر وهوazon وسلمي وفرارة وعيس وذبيان وأسد وطيء وتميم وحنيفة ، وكانت في عددها وقوتها أكثر من القبائل الأخرى . ومن هذه القبائل لم يدخل في الإسلام إلا خمسة أو عشرة قبيلة ما وف قبيلة أخرى خمسون أو مائة ولا أكثر من ذلك ، وكان السود الأعظم منهم إما أنهم خاضعون للمدينة ويعارضون الصلاة والزكاة ، وإما أنهم خضعوا للمدينة خصوصاً اسمياً فقط ، حتى يحفظوا على أنفسهم استقلالهم ، وكانوا على استعداد لتحمل أداء فرضية الصلاة بشرط إسقاط الزكاة » .

والكاتب المذكور في بيانه هنا ، بالإضافة إلى أنه خلط وأنخطأ في ذكر منطقة السكن الجغرافي للقبائل وعدد آخر من الأمور ، فالأهم من ذلك أنه ذكر أن الإسلام لم ينتشر بين القبائل المذكورة ، وإذا انتشر فقد انتشر على نطاق ضيق جداً .

ونسوق مثلاً واحداً هنا دليلاً على خطئه ، فطبقاً لبيان ابن إسحاق فإن
بني سليم فقط قد أعدوا ألف مجاهد تقريراً لرسول الله ﷺ لمهمة فتح مكة .
فهل كانوا جميعاً غير مسلمين ؟ ثم إنه ذكر أن هوازن وطريقاً وغيرهم لم يكونوا
مسلمين ، بينما كانوا قد أسلموا . وهوازن لم يشاركاً في الردة . ودعوى
المؤرخ المذكور هي في الواقع على عكس الواقع ، أي أن السواد الأعظم كان
من المسلمين ، وأن عدداً قليلاً كان غير مسلم ، وبعد وفاة النبي ﷺ نجحوا
في التشويش على الآخرين . والخطورة الأكبر هنا هي تلك الحملة الخطيرة التي
قادها الكاتب خورشيد فاروق ، فقال عن القبائل العربية إنها لم تكن مع المدينة
ومع الإسلام بإيمان القلب وبإخلاص النية وصدقها ، بل كانت معها نفاقاً
وخدعًا من الخليفة ، أو بسبب علاقة قرب مع رسول الله ﷺ أو منه .

ثم يقول الكاتب المذكور : « ظلت قريش مكة وثيق الطائف وبعض
فروع قبائل نجد وعدة قبائل من قبائل المناطق الحبيطة بالمدينة ، بالإضافة إلى
مزينة وجهينة وغفار وأسلم وأشجع وكعب ، وهي القبائل التي خافت على
نفسها عقاب الخليفة العسكري ، أو كانت تربطها مع رسول الله قرابة أسرية ،
أو نتيجة لإنسانه وفضله ، هذه القبائل ظلت تمسك بتلابيب الإسلام ، أما
بقية العرب فقد تغيرت اتجاهاتها وتغير لونها وعقدت العزم على التحرر من
سيطرة المدينة » .

وطبقاً لبيان الكاتب المذكور لم يقبل أحد الإسلام في العهد النبوى
بإخلاص من كل قلبه أو بفهم وإدراك ، كما أن أحداً لم ينشأ أن يظل قائماً
على الإسلام بعد وفاة الرسول بإخلاص وإيمان ، لقد قام عدى بن حاتم الطائى
بإدخال قبيلته الباغية وبقية القبائل ، وبخاصة بعض جماعات جديلة وأسد إلى
حظيرة الإسلام بعد حرب براحة ، إلا أن البروفيسور فاروق يرى أن عودتهم

إلى الإسلام كانت بسبب مصلحة سياسية وضغط عسكري أو بسبب الخوف والعقاب .

كما قرر الكاتب المذكور أن الثلاثة الذين ادعوا النبوة ؛ مسليمة الكذاب وطلحة الأسدى وأسود العنسي ، هم رؤساء أكبر قبائل البلاد ، وذكر أنه نتيجة لسوء نواياهم وقلوبهم السوداء انفصلوا عن رسول الله وتحرروا من سيطرته ، كما ذكر أنهم كانوا أكبر منافسين للنبي عليه السلام ، واعترف أيضاً بنبوتهم ، كما اتهم بنى هاشم والأنصار بعدم التعاون في حروب الردة ، وعدم اشتراكهم في الجهاد الإسلامي ، بينما يذكر من ناحية أخرى أنه في حرب البغامة اشتركت جماعة عددها أربعين أو أربعين وخمسون من الأنصار ، كما يرى أيضاً أنه من بين الألف ومائى شهيد من شهداء حرب البغامة لا يزيد عدد المهاجرين والأنصار عن ثلاثة وسبعين نسمة وهم من الأنصار ، كما يرى خورشيد فاروق مليئة بالتضاد والتناقض في كل السطور وفي كل الصفحات .

يريد المستشركون ومن ولامهم في الهند من مثل خورشيد أحمد فاروق ، أن يثبتوا من خلال حروب الردة أن الإسلام قد راج في العهد النبوى بين القبائل المركزية فقط ، وأن بقية القبائل في نجد وتهامة واليامنة لم تدخل الإسلام ، وإن كانت قد قبلت الإسلام فإما كان ذلك في الظاهر فقط ، أما قبائل مناطق الحدود فكانت جميعها على غير الإسلام ، وما حدث أصلاً كان عصياناً سياسياً لا ردة ، لأنهم لم يسلموه أصلاً ، وهذا العصيان كان يهدف إلى الحصول على الحرية الإقليمية ، والخلاص من سيطرة المدينة ، والتحرر من العباء الاقتصادي الملقي على كاهلها من قبل المدينة ، ولقد أحاط العصيان السياسي بالبلاد جميعها ولم ينج منه سوى بعض المناطق المركزية ، ولم يقم الخليفة الأول بسحق العصيان بحد السيف ، بل أوقع العديد من المظالم الشديدة في المتمردين وأجبرهم بالقوة على قبول الإسلام .

يفهم من مطالعة التاريخ الإسلامي أن النظريات السائدة لهذه المؤلفات كلها اتهامات خاطئة ، إذ إن جميع العرب قد أسلموا في العهد النبوى سوى سكان بعض المناطق القليلة للقبائل التي تعيش على الحدود ، ولم تقبل قبائل هوازن ، غطفان (عدا فزاره) ، سليم ، مزينة ، جهينة ، أسلم غفار ، طيء (عدا عوت وجديلة) خزاعة ، كنانة ، ثقيف ، قريش ، أنصار المدينة الأوس والخرج أزد ، أزد شنوة ، عبد قيس ، وتميم (على الأقل ثلاثة فروع) وعدد آخر من القبائل ، لم تقبل هذه القبائل الإسلام فقط وتقيم عليه ، بل إن جميع أفرادها وشيوخها قد ظلوا على الإسلام في زمان تلك الفتنة ، والقول بأن إسلام هذه القبائل كان إسلاماً ظاهرياً أو للعرض فقط أو بسبب من الأسباب الأخرى ، إنما هو بمنابة مراح على صفحات التاريخ الإسلامي ، لقد سقوا الإسلام بدمائهم في حروب الردة . ويحاول خورشيد فاروق ومن هم على شاكلته من الأساتذة أن يضعوا هؤلاء الذين ادعوا النبوة في صف واحد مع رسول الله عليه صلواته ، بينما يفهم من الروايات أن الذين آمنوا بأقوال أولئك المتنبئين قد عادوا فكذبوا دعواهم تلك ، ولم يق معهم سوى من جمعتهم بهم العصبية القبلية .

لقد قام أبناء اليمن الذين ترأسمهم فيروز الديلمي بالجهاد ضد الأسود العنسي ، وقضوا عليه وسحقوا حركته ، وقامت بعض جماعات قبيلة كل من طليحة الأسدى ومسيلمة الحنفى بالاشتراك في الجهاد الإسلامي ، لقد كانت هذه فتنة الردة أساساً ، اشتراك فيها فقط بعض القبائل التي لم تتلق تعليماً صحيحاً ولا تربية صحيحة .

لقد كان للعوامل الاقتصادية والعوامل السياسية دخل ، إلا أن هذا لا يمكن أن يتطور ليتخد شكل العصيان ضد الدين ، لقد أرادت بعض الفئات التخلص من أداء الزكوة ، إلا أنها كانت صادقة في مطلبها هذا ، إذ ستقيم بقية أركان

الدين ؛ لأن هذه الفئات فهمت خطأً أن الزكاة واجبة فقط في حياة الرسول ، ومصادرنا فيما يتعلق بهذه الفتنة قد حللت الفتنة تحليلًا صحيحاً حين قسمت المرتدين إلى طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى : مانعوا الزكاة . أنكرت هذه الطبقة إعطاء الزكاة ، ولم تنكر أى ركن آخر من أركان الدين .

الطبقة الثانية : شملت أولئك الذين تركوا الإسلام وارتدوا .

الطبقة الثالثة : شملت من أدعوا النبيه من كانوا يحلمون بتحقيق سلطة سياسية في ظل ادعائهم النبيه .

وفيما يتعلق بدائرة فتنة الارتداد والعصيان ، فيمكن أن تحدد عن طريق منازل الجيوش الأحد عشر التي كان أبو بكر قد أرسلها لقتال مختلف المرتدين والعصابة وقادة القبائل التي ظهر فيها مدعو النبيه . وقام الخليفة الأول نفسه بالاشتراك مع الجيش الذي قام ضد العصابة في رندة وذى القصبة ، وكانوا قد تجمعوا في مناطق مختلفة هناك ، في محاولة للهجوم على المدينة إن وجدوا فرصة لذلك ، أما باق الجيوش فقد قام خالد المخزومي لحاربه جيش بقيادة طلحه الأسدى كما أرسل عكرمة بن أبي جهل المخزومي وشريحيل بن حسنة الكندي لقمع قبيلة بنى حنيفة باليهامة الذى كان رأسها هو مدعى النبيه مسيلة الكذاب ، كما أرسل عمرو بن العاص لقتال المرتدين من قبائل قضاعة وكلب ، وأرسل طريفة بن حاصل السلمى لمواجهة بنى سليم ، كما أرسل خالد بن سعيد الأموى لقتال المرتدين في المناطق الغربية من حدود الشام ، بينما أرسل مهاجر ابن أبي أمية إلى اليمان ، وأرسل السويد بن مقرن إلى تهامة اليمان ، وأرسل عرفجة ابن هرثمة إلى مهرة ، وأرسل حذيفة بن المحسن الأزدي إلى عُمان وعلاء بن حضرمى إلى البحرين .

يبت من التحليل السابق أن المناطق الخدوية فقط هي التي أوجحت نيران

الردة ، أما العرب الوسطى فقد ارتد منها منطقة أسد وطيء فقط ، وهناك حقيقة هامة أن من بين القبائل المرتدة عدداً كبيراً جداً من المسلمين الخلصين الذين حافظوا على عقيدتهم بدمائهم وقت المحنّة وأعلنوا الجهاد ضد المرتددين من قبيلتهم بعد قدوم جيوش الإسلام ، وهذا فمن الخطأ أن نقول بأن الردة أو الارتداد أو العصيان شمل العرب كلهم . والنظرية الأكثر خطأً هي تلك التي تقول بأن الخليفة الأول قد نشر الإسلام بحد السيف حتى أدخل العرب في الإسلام . وإنه ليثبت من خلال دائرة الإجراءات العسكرية وال نطاق الذي تناولته العمليات العسكرية أنه لا يمكن إجبار العرب عن طريق القوة بقبول الإسلام ، وتبين الواقع التاريخي أن عدداً من العصابة والمرتددين قد دخلوا دائرة الإسلام باقتناع ثم إن الإسلام لا يقول أبداً بإجبار الناس بالقوة على اعتناق الدين . ومن هنا فإن التحليل التاريخي الذي يحاول المستشرقون والمؤرخون الجدد نشره بين الناس إنما بنى على روایات خاطئة وأدلة ممسوحة واستنتاجات فاسدة .

الفتوحات الإسلامية الدّوافع والأهداف

كما قام المستشرقون والمؤرخون الجدد بالبحث عن الدّوافع والأهداف الاقتصادية للفتوحات الإسلامية في العهد النبوى ، فإنهما يقومون أيضاً بالإشارة إلى الأسباب والعوامل الاقتصادية والعسكرية والعوامل الأخرى التي أدت إلى الفتوحات الإسلامية للبلاد المجاورة كالعراق والشام ومصر وإيران وغيرها في عهد الخليفة الرشيدة ، إلا أن الحكاية الأعجج هي التي نسمعها منهم ، وهي بداية الفتوحات الإسلامية بعد حروب الردة .

يرى أكثر المؤلفين أنه في زمان حروب الردة تحولت الدولة الإسلامية كلها إلى معسكر للجيش ، لأنه كان من الضروري إخضاع الجزيرة العربية كلها من جديد لسيطرة المدينة المنورة ، وهذا استلزم الأمر إجراء عسكرياً قوياً . وعلى نطاق واسع حتى يمكن أن يجعل الجزيرة العربية كلها تابعة للحكم الإسلامي . وكان من اللازم توجيه المسلمين بل القوى العسكرية للقبائل العربية التي تفوقت بما لها من أسباب مختلفة إلى خارج الجزيرة العربية ، وأصبح البحث عن سبيل أمراً ضرورياً ، وإلا عادوا إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام من حروب داخلية ، وهذا فكر الخليفة الأول في أن تستفيد الأمة الإسلامية من هذه القوة العسكرية الفائضة ، وبدلاً من أن تستخدم في أمور غير نافعة رأى توجيهها إلى حدود العراق ثم الشام وفتح جبهات قتالية هناك .

ويرى « فيليب حتى » ومن يوافقه في رأيه من المؤلفين أن الخليفة الأول لم تكن لديه في البداية أية خطة محددة مدروسة لفتح المناطق المجاورة ، والخطة تتلخص في القيام - عن طريق مهام بسيطة تتركز على النهب والسلب والإغارة - باستغاث القوة العسكرية للعرب من ناحية والحصول على أموال الغائم من ناحية أخرى ، وبعد فتح تلك المناطق ثم ضمها إلى الدولة الإسلامية ، وهو ما لم يكن متصوراً للذاته من تلك المهام ، ولكن حين انتشرت هذه الإرساليات العسكرية بسرعة كبيرة ، خرج زمام المغاربين من يده ، وحين بدأت الفتوحات فجأة تم وضع خطة منتظمة لها ، وهو ما نتج عنه قيام الدولة العربية .

إن دوافع الفتوحات الإسلامية أو نظرية بدايتها تلك وعرضها بهذا الشكل إنما هو خليط من الصحة والخطأ ، فصحيح تماماً أن الدولة الإسلامية في البداية لم تضع خطة منتظمة للفتوحات ، كما أنها لم تكن ترغب في مُدّ حكمها ونشر سلطانها على البلاد المجاورة ، إلا أن تحليل أسباب بدايتها هو تحليل خاطئ .

لقد وضح من التحليل السابق لحروب الردة أن الدولة الإسلامية لم تتحول إلى معسكر أو مخزن للسلاح . وتحليل قوتها العسكرية يوضح أن عدد الجيش الإسلامي كان لا يزيد عن ١٥ أو ٢٠ ألفاً ، ثم إن من بينهم جنود معظم المهمات ، وهو ما أضاف إلى القوة العسكرية . فمثلاً إن الزيادة في عدد جيوش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة كانت نتيجة لاشتراك جند المهمات ، وبعدها فإن جنود القائدين الآخرين قد زادوا في القوة العددية للمهمات والمرسلة إلى العرب الجنوبيين ، وقد تجاهل المستشرون هذه الحقيقة ، وهي أنه في العهد النبوي لم يكن هناك جيش مستقل منظم ، هذا بالإضافة إلى أن أكثر المجاهدين المشاركين في المهمات كانوا قد عادوا إلى مناطقهم أو إلى قبائلهم بعد انتهاء تلك المهمات .

وتوضح بعض الروايات والمراجع والمصادر أنه في الدور الأول للخلافة الرشيدة على وجه خاص ، وفي الفترات التالية بوجه عام ، ظهرت قضية نقص عد الجنود ، وقد تعرضت بعض الجبهات لأزمات شديدة نتيجة هذا النقص . وقائد بنى بكر بن وائل المشى بن حارثة الذى يتهمه المؤرخون بتهمة قيامه بالهجوم العسكري على جبهة العراق ، اضطر إلى أن يكتب عدة مرات إلى المدينة بسبب نقص الجنود ، وفي النهاية اضطر إلى أن يأقى إلى المدينة . ولو سلمنا بنظرية الإرساليات الحربية ، واستنفاد الطاقة العسكرية الزائدة ، فإن النتيجة المنطقية التى نستخلصها هي ألا يجب أن تكون هناك شكوكى من قلة عدد القوة العسكرية ، وكان يمكن السيطرة على هذه المشكلة بسهولة . ثم إذا كان الهدف هو استنفاد الطاقة العسكرية الزائدة ، فقد كان يكفى فتح جبهة واحدة ، إلا أن فتح جبهتين في وقت واحد ، ومواجهة مشكلة قلة عدد الجنود لا يمكن أن يكون دليلاً على بعد النظرية العسكرية ، وهكذا فهذه النظرية بأكملها فريسة للتضليل ، ولا تؤيدها الواقع التاريخية أبداً . صحيح أن بداية

الفتوحات الإسلامية كانت مع حروب الردة ، غير أن لها صورة أخرى غير تلك الصورة .

لقد قام العديد من المرتدين والتمردين باللجوء فقط إلى المناطق الخاضعة للعراق وإيران ، بل بدأوا أيضا في الإغارة على المناطق الإسلامية ، وكانت الحكومات هناك تعصدهم وتساندهم مساندة واضحة ، وتقوم بحمايتهم ، وفي تلك الحالة أصبحت جبهة العراق أشد خطرا . ومن الواضح أن القبائل الموالية للمدينة كانت ترد على الغارات الموجهة ضد حدودها . وقد طلب المشنوي بن حارثة الشيباني إذن له بالهجوم على المناطق المغيرة ، وذلك للوقوف في وجه تلك العمليات العدوانية على حدود الدولة الإسلامية ، ولم يسمح له في البداية ، وفي النهاية وحين عرف الخليفة الأول بخطورة الموقف سمح له بالتخاذل الإجراءات المناسبة ، وقد وجد خالد بن الوليد فرصة في حروب ردة اليمامة ، فصار في ركابه في العودة ، وصدر الحكم بالتقدم ناحية الحدود العراقية لمساعدة المشنوي ومن معه من المجاهدين ، وهكذا بدأت الفتوحات على الجبهة العراقية .

وكان هذه تقريراً هي الظروف التي ظهرت على جبهة الشام ، وكرد فعل لهمة أسامة قامت الحكومة البيزنطية بالإعداد للهجوم على الدولة الإسلامية ، ثم نتيجة لحروب الردة قام عمرو بن العاص وخالد بن سعيد بسلسلة من الإجراءات التأديبية ضد المرتدين والبغاة من قبائل قضاة وكلب وغيرها ، ونتيجة لذلك بدأ الاصطدام مع القبائل الموالية للإمبراطورية البيزنطية . وبناء على المخاطر المتوقعة من جانب الروم قام أبو بكر الصديق بالشاور مع الصحابة الكرام بإرسال أربع مهمات صغيرة لدرء أبواب هذه المخاطر بقيادة يزيد بن أبي سفيان الأموي ، وأبي عبيدة بن الجراح الفهري ، وشرحبيل بن حسنة الكندي ، وعمرو بن العاص السهمي ، ولم يزد عدد جندهم مجتمعين على ٢٧ ألفاً ، ولم يكدر هؤلاء يبدؤن مهماتهم حتى قام هرقل إمبراطور

البيزنطيين - وكان في مدينة حمص آنذاك - بإرسال جيش جرار لمواجهة المسلمين ، وأصبح الوضع على جهة الشام دقيقاً للغاية ، فأمر أبو بكر خالد ابن الوليد بالتوجه إلى جهة الشام على الفور ، لأنه لم يكن لديه جيش بالمدينة الموردة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم تتخذ الإمبراطورية الإيرانية أية إجراءات عسكرية بصورة منتظمة حتى ذلك الوقت ، ونفع عن ذلك فتح باب الحرب بصورة كاملة على مصراعيه على جهة الشام ، وقد قامت الحكومة الإيرانية بإعلان الحرب بصورة منتظمة ، ففتحت بذلك جهة ثانية ، وهكذا بدأت الفتوحات الإسلامية .

وهناك عدة أسباب تفسر ما مضت عليه الفتوحات الإسلامية من سرعة ، وما كانت عليه من اتساع وفتحات في وقت واحد . من بين هذه الأسباب ، الحالة السياسية للإمبراطوريتين الإيرانية والبيزنطية المتدهورة ، بالإضافة إلى سوء وفساد الوضع الاقتصادي والتزق والتفتت الاجتماعي والديني ، فقد بدأت عظمة هاتين الإمبراطوريتين في الزوال ، وهي العظمة التي كانتا عليها في زمان قسطنطين وخسرو برويز ، ونتيجة لما أصابهما من الخطاط وتدور أصبحتا عاجزتين عن مواجهة الإمبراطوريات القوية ، ولكن على الرغم من كل هذا فقد كانتا أقوى إمبراطوريات العالم حينذاك ، وكانتا أفضل من العرب من ناحية المهارة الحربية والعسكرية وكثرة الجنود والسهولة والانسياب في ميدان الحرب ، وكذلك من ناحية إعداد وتجهيز الجندي بالأسلحة والعدة والعتاد ، وكذلك في جميع الإدارات والأقسام الأخرى المتعلقة بالجيش ، ومع هذا فيرى بعض المؤرخين أن التكتيك الحربي للعرب تفوق على ما لدى الروم والإيرانيين ، فقد استخدم العرب الأسلوب الحربي المؤثر في ميدان غرب آسيا وشمال أفريقيا ، وكانت لهم براعة ومهارة في ركوب الخيل والجمال ، وهو ما لم يتتوفر أبداً لدى الروم .

ومن الممكن أن يكون « التكتيك » العسكري للعرب قد تفوق في جهة

ما ، أو في مرحلة ما من مراحل الحرب ، إلا أنه لم يثبت بأى حال من الأحوال تفوق العرب في الحالات الحربية التي سبقت الإشارة إليها ، وعلى الأقل فإن مصادرنا التاريخية تثبت وتوكد تماماً تفوق التكتيك العسكري للجيوش المعادية . وهناك سبب آخر يقول بأن نهاية إمارات لخم وغسان ، وهى الإمارات التى كانت تقوم بدور Buffer States ، أي الدول المصددة أو التى تتلقى الصدمات الأولى بين العرب والإمبراطوريات المجاورة ، مما سهل للعرب إحكام السيطرة على المناطق التى دارت فيها المعارك . والقول بأن العرب كانوا ينظرون بطمع إلى تلك المناطق يتعارض مع الحقائق التاريخية ، وهو قول يزيد عليه قول آخر بأنهم تفوقوا في تلك المناطق لأنها مناطق صحراوية ، مع أن الجيوش الإسلامية خاضت معارك شرسة جداً على الجهتين العراقية والشامية ، وتحملت أحياناً جراح المهزيمة ، والضغط المستمر من قبل الجيوش المعادية ، ثم هذه حقيقة أن جواً عسكرياً وسياسياً لم يكن قد بدا على الجهتين .

وهناك سبب من أسباب الفتح ، وهو أن أهل البلاد المفتوحة كانوا يعنون تحت ثقل المتابع الاقتصادي والسياسية وغيرها ، فقد اعتبروا الفاتحين المسلمين منقذهم مما هم فيه ، فرحبوا بالإجراءات العربية ، وتعاونوا مع الجيوش العربية ، وهناك سبب آخر مكمل لجملة هذه الأسباب ، فقد قيل لقد ذات القبائل العربية ذاتها حلاوة النصر الذى تحقق من خلال الفتوحات العربية ، وهى القبائل التى كانت تعيش في المناطق الحدودية ، ولهذا تعاونت مع العرب الفاتحين من أجل العصبية القبلية والعرقية والفوائد المادية .

وليس بالمصادر التاريخية ما يؤيد هذين السينين أيضاً تأييداً كاملاً ، فقل أن تجد في مصادرنا أمثلة وشهادات تؤيد هذا الأمر ، بل لا يوجد أبداً في بعض الأماكن ما يؤكّد أن السكان المحليين قد أيدوا الجيوش الإسلامية ، بل هناك شهادات واقعية فعلية تدل على عكس ذلك ، وهو وصول طلبات عديدة

من الجبهات للمدينة المنورة طلباً للمدد والعون ، وفي معظم الأوقات كان هذا العون مجرد عدة مئات أو ألف جندي ، وفيما يتعلق بمسألة الترحيب العام بالفاتحين المسلمين من جانب السكان فهذا أمر صحيح ، إلا أنه من الطبيعي بل من الشائع ألا يشترك السكان المدنيون في القتال ، وبلاشك أمد هؤلاء السكان المسلمين بالعون المعنى ، وهو ما حُرمه القادة والجنود الرومان والإيرانيون . ومن الواضح أنهم تأثروا كثيراً بالأخلاق الإسلامية .

لقد حاول فيليب حتى أن يستطع ويحلل الفتوحات الإسلامية وكأنها صدام بين الشرق والغرب ، ويكتب ناصحاً بوجوب تحليل الفتوحات الإسلامية بتلك الخلفية ، إذ إن الشرق الأوسط القديم كان تواقاً إلى استرجاع مناطقه المحتلة ، والشرق تحت تأثير الإسلام بدأ يرى حلمه القديم من جديد ، فأراد أن ينزع عن نفسه رداء التسلط الغربي الذي استمر لآلاف السنوات . وهو يقول : إن الفتوحات الإسلامية كانت أيضاً عاماً من عوامل الاستغلال الإقليمي ، وهذه النظرية الخاصة بالفتوحات الإسلامية هي بالضبط الحديث النظري التفسيري ، إلا أن زمان الفتوحات الإسلامية وهو القرن السابع المجري لم يشهد تصور الشرق والغرب كما يريد المؤرخ المذكور تفسيره ، كما أن الفاتحين المسلمين والحكام المسلمين لم يرد أبداً على أذهانهم التصور القائل بخلص الشرق من سلط الغرب والاستقلال الإقليمي واسترجاع السلطة الضائعة . والحقيقة أن السبب المجرد للضغط على أهمية هذه الأسباب والعوامل والتأكيد عليها مرة بعد مرة ، إنما يهدف إلى إخفاء العامل الأساسي للفتوحات الإسلامية .

والواقع أن السبب الأساسي لسرعة الفتوحات الإسلامية وتماسكها ، وهو ما لا يريد المعاندون والمخالفون من أعداء الإسلام الاعتراف به ، هو الحماسة الدينية لدى حملة الإسلام ، وما كان لذلك من نتائج ، ويعرف مؤرخ غربي

بذلك فيقول : « بالإضافة إلى العوامل والدّوافع المساعدة السابقة ، فإن سبب هذا النجاح الساحق والتوفيق الباهر يكمن في الإسلام الذي بذل العرب البدو « المتّوحشين » الذين لم يكن يجمعهم نظام إلى جيش وفيّ منظم : ملتزم بالضبط والربط ، متّمدن ومتّحضر .. إنه الإسلام الذي ملأ قلوبهم ، والإحساس الذي سيطر عليهم بأنّ القتال جهاد ينالون أجره رضا من الله ومغفرة ، ومال الغنيمة هو إنعام مادي دنيوي دليل على مرضاعة الله .

ومع أن هذا الاعتراف يضم فقرة كالسم في العسل وهي « القتال ضد أتباع الأديان الأخرى جهاد » ذلك لأن المسلمين قاموا بالجهاد للقضاء على الظلم والبربرية والإفساد في الأرض ، لا ب مجرد قتال أتباع الأديان الأخرى ، وهو ما يتضح حقيقة للعيان ، وفيليب حتى ، اضطر إلى الاعتراف بالحقيقة فقال : « وكان العرب الذين حرموا من الكفاءة والديانة قد تحولوا بعد وفاة النبي بسحر ساحر إلى أبطال عسكريين ومثل هؤلاء الأبطال لم نكن لنفتقد لهم في مكان واحد من ناحية العدد أو الكفاءة ، فخالد بن الوليد وعمرو بن العاص من قاموا بهمّة فتح إيران والعراق والشام هم أمثلة نادرة جداً وعظيمة في تاريخ الحروب العالمية ، وقد تفوقوا على ما قام به نابليون وهنّي بال وحتى الإسكندر الأكبر » .

وفي هذا الاعتراف وردت جملة بريئة في ظاهرها تحمل السم في باطنها وهي « بعد وفاة النبي » . والحقيقة أن المد الإسلامي السريع كان نتيجة منطقية وضرورية لتعاليم رسول الله ولتربيته الحكيمية لصحابته وللمسلمين ، ولما تم قبلًا من إخضاع الجزيرة العربية كلها للإسلام ، ومن بعده قام الصحابة الكرام وبتأثير من أعمال رسول الله وتوجيهه ففتحوا البلاد المجاورة لنشر كلمة الحق .

أهداف الفتوحات :

أكبر هجوم على الفتوحات الإسلامية هو الهجوم على سلسلة أهدافها ، فقد

أقر « فيليب حتى » أن هدف الحملات الأولى [الغزوات] على قبائل الحدود كان الغزو والإغارة والرغبة في التمتع بالدعة واللذات ، والمؤرخ المذكور في بحثه عن أهداف الفتوحات يقدم وجهة نظره في ثلاث نقاط :

الأولى : وجهة النظر التي تساير وجهة نظر علماء الإسلام ، والقائلة بأن الفتوحات الإسلامية كانت دينية خالصة .

الثانية : وجهة النظر التي تساير وجهة النظر النصرانية ، وهي أن المسلمين الفاتحين قاموا بتخدير الأمم المفتوحة بين الإسلام أو السيف ، أي أن وسيلة الإسلام في انتشاره هي السيف .

ووجهة النظر الثالثة يعرضها هو نفسه ، وهي أن الجزية والخراج كانا أكثر محبة لدى المسلمين الفاتحين من غيرها .

وبعد أن يقدم استشهاده بالأية التاسعة من سورة التوبه^(١) يكتب :

« نتيجة لضغط الظروف ، ثم وجود بديل ثالث ، كان على الزردشتين والبربر والترك اختياره (أي الإسلام) فلقد كون الإسلام لديهم فكرة حرية جديدة ، ووجهة نظر اجتماعية سهلة ، ومع أن الإسلام قام بدور لا مثيل له في توحيدهم ، إلا أن هذا لا يكفي لتوضيح وشرح الفتوحات العربية بطريقة كاملة ، وبدلا من الحماس الديني فإن الضرورات الاقتصادية قد تفوقت لدى العرب على الحرب ، فمشكلات الصحراء كانت سببا في هجومهم على الملال الخصيب ، حتى ينالوا الراحة والدعة ، ومن الممكن أن تكون فكرة الذهاب إلى الجنة قد ظلت تداعب قلوب بعض الناس ، إلا أن المدف الأأسى كان الثروة والحصول على الفوائد المادية .

(١) ﴿ اشتروا بآيات الله ثنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ التوبه ٩ . المترجم .

ويدعى فيليب حتى أن بيانات وتصريحات ليون كيتاني ، ويذكر وغيرهما من المؤرخين الجدد ، وأن المؤرخين العرب القدماء قد أهملوا تماما هذا الجانب الاقتصادي للفتوحات الإسلامية ، وهكذا ينقل نص خطاب الخليفة الأول من فتوح البلدان للبلاذري ، والذى كتبه لعرب مكة والطائف واليمن ونجد والحجاج ، يدعوهם للمشاركة في الجهاد الإسلامي دافعا إياهم مشجعا لهم بما قد يحصلون عليه من أموال الغنيمة . « ولم يثبت سوى بيت من الشعر عن شجاعة القائد الإيراني رستم يخدم به مفاهيمه وأهدافه ». ولقد ترك بعض المؤرخين النظرية القائلة بالأهداف الاقتصادية الخالصة ، ولاشك أن بعض المؤرخين المتصلبين لا يزالون يتعلّقون بها ، والسبب في ذلك هو أن هذه النظرية مبنية على مزاعم عديدة وغير مقبولة ، لأنها أولا تقرر أن الفتوحات الإسلامية هي عبارة عن حلقة من سلسلة الهجرات السامية المغرفة في القدم ، وبناء عليه وبعد الإسلام حدثت زيادة كبيرة بين السكان العرب وبسرعة هائلة مما مثل بدوره ثقلا اقتصاديا ، وجعل معيشتهم تواجه صعوبات متنوعة ، وبسبب هذا التحدّث المجرأة العربية السامية الجديدة شكل الفتوحات . وقد أبطل المؤرخ فرانسيسكو جيرائيل النظرية القائلة بالضغط السكاني الذي نتج عنه هجرة اقتصادية لأنه لا يوجد إثبات يدل على الزيادة في السكان منذ ذلك التاريخ ، وبعد مجيء الإسلام ، بل أكثر من هذا يقول إن العرب الفاتحين طوال فترات فتوحاتهم الطويلة لم يفرّحوا أو يُسرّوا بالسكن بالمناطق كثيرة السكان ، أو يفرّحوا بالإقامة في المناطق التي فتحوها ، وكانوا بعد الفتح يفضلون في معظم الأحيان العودة إلى مناطقهم الصحراوية ، ثم حتى زمان خلافة عمر ظلت سياسة الحكومة ألا تسمح للعرب بالإقامة بالبلاد المفتوحة ، وطبقا لقول جيرائيل : إن بين الصحراء برماتها والعرب مجنة قديمة ، استمرت حتى مع العهد الأموي ، لدرجة أن خلفاء بنى أمية كانوا يفضلون بناء قصورهم في الصحراء والبادية وكانوا يقضون فيها كثيرا من أوقاتهم .

و « فيليب حتى » الذى سبق ذكره قدم ثلاثة أمثلة فقط يُؤيد بها نظرية العامل الاقتصادي ، بينما يمكن تقديم آلاف الأمثلة ضدّه من التاريخ الإسلامي . والخطاب الذى نقله عن أبي بكر الصديق فيه في البداية حَضْنُ للمسلمين على الجَهَادِ الإِسْلَامِيِّ ، ثم قرر أن أموال الغنيمة هي جائزة وإنعام ، وهو ما تغافل عنه المؤرخ ، وهكذا قدم بطريقة ساخرة ما جاء عن رسم القائد الإيراني ، ولم يقدم رد وجواب المعموت المسلم الذى يتضح منه أن الجَهَادِ هو الهدف المطلوب لا الغنيمة ، فقد كان هدف الفتوحات في المقام الأول هو الجَهَادِ الإِسْلَامِيِّ ، وهو ما بدأ المستشرقون يعترفون به أيضا ، وعلى رأسهم جبرائيل ، وكما قال فإن الدوافع والأهداف الأخرى كانت دوافع وأهدافاً ثانوية ، فإذا كان عامل الإسلام والدين هو منتقى هدف هذه الفتوحات ، فإن هذه السرعة التي شهدتها الفتح الإسلامي ، وهذا التماسك وهذه الصلابة لا يمكن أبداً أن تكون نتيجة لأسباب أخرى غير نشر الإسلام لأسباب تتعلق بالفوائد الاقتصادية وما إلى ذلك ، ولا أحد ينكر أهمية العوامل الأخرى بالإضافة إلى الإسلام والجهاد ، ولكن طبقاً لقول أحد المستشرقين ، إن الجَهَادِ في سبيل الله للحصول على الجنة في الآخرة هو الأساس ، وليس الحصول على الأجر الديني كان أصل الدوافع والأهداف التي تسبّب عنها الفتوحات الإسلامية .

نوعية الفتوحات الإسلامية :

لقد كان المدفّع الأساسي للالفتوحات الإسلامية هو إعلاء كلمة الله ، وبصورة أساسية فإن الدولة الإسلامية كانت تهدف إلى تبليغ رسالة الله إلى غير المسلمين عن طريق الدعوة والإرشاد ، كما حدث في العهد النبوى في شبه الجزيرة العربية ، ولو أن هناك فرقاً بين العصر المكى والعصر المدنى في زمان النبي ﷺ ، فهو أنه في العصر المكى تم نشر الإسلام بأسلوب التبليغ ، ولكن في العهد المدنى حين سُدِّتُ الطرق وأغلقت أمامه ، تم تحقيق

نفس المدف في ظل الفتح والنصر ، ولو سمحت الظروف لما اضطرت الدولة الإسلامية لأشهار السيف في وجه أحد ، ولكن حين قام الكفر بسل سيفه ضد الإسلام اضطر الإسلام أيضا إلى رفع السيف ، وهذه هي أصول الجهاد الإسلامي التي لا تقبل تعديلاً أو نسخاً .

إن استخدام كل طريقة مشروعة في سبيل الحفاظ على الإسلام وإعلاء كلمة الله ، واستخدام التبليغ والإرشاد في حالات السلم ، واستخدام القوة والشوكه والفتح والنصر على الجهات لا يحتاج بالضرورة إلى تقديم أي اعتذار .

ولنقارن فتوحات فاتحى العالم مثل الإسكندر وجنكير وهنى بال ونابليون وغيرهم بالفتاحات الإسلامية . إن أهمية أهدافها ومقاصدها تقل بل تصغر أمام أهمية الفتوحات الإسلامية ، ولاشك أن فاتحى العالم هؤلاء قد سيطروا على العالم في معظمها ، إلا أن سيطرتهم كانت مجرد سيطرة وتحكم في شعوب العالم المفتوحة ، لا امتلاكاً للعالم ، وهناك فرق بين السيطرة والامتلاك ، لقد أصابوا قلوب الناس بسيوفهم ، ثم لم يضمنوا جراحها ، لكن الفاتحين المسلمين حرروا الإنسانية من عبودية الإنسان ، ورفعوا عن كاهل الناس الثقل الاقتصادي ، وأعطوا البشرية الحرية الدينية وأقاموا حكم القانون ، وبعد الفتوحات أقاموا الأمن والنظام ، وعملوا على بناء ورقى البلاد المفتوحة ، كما أصلحوا جميع جوانب الحياة وطوروها ، عملوا على رق التجارة والزراعة والاقتصاد والمجتمع والثقافة والدين ، وقد شهدت جميع جوانب الحياة في البلاد المفتوحة ازدهاراً ورخاءً وقام المسلمين بإضاعة قناديل العلم والمعرفة ، أعطوا ما عندهم لأهل البلاد المفتوحة ، كما أخذوا ما عند هؤلاء من علم وفضل .

لقد أرست الفتوحات الإسلامية أسسًا جديدة للثقافة والحضارة من أهمها : الحاكمة الإلهية ، الحبة النبوية ، العظمة الإنسانية ، وهذا هو السبب الذي جعل أهالى البلاد المفتوحة يرحبون دائمًا بالفاتحين المسلمين ، لأنهم رأوا فيهم منقذى

البشرية ، وبالتدريج وبدون أى جبر أو إكراه دخلوا في دين الله أفواجا ، تعلموا العربية ، وقبلوا الثقافة الإسلامية لدرجة أنه لم يكن هناك فرق بين البلاد المفتوحة في عهد الصحابة ومركز الإسلام ، حيث انتشر نور الإسلام في جميع البلاد التي تمثل اليوم العالم الإسلامي كله .

انتخاب الخليفة الثالث :

يوجه بعض محبي النقد ، نقدا إلى مجلس انتخاب الخليفة الثالث ، وهو المجلس الذي شكله عمر رضي الله عنه ، ويثيرون حوله الشبهات من الناحية التاريخية ، إلا أن الواقعة المسلم بها في التاريخ الإسلامي هي أن الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه قد أقام قبيل وفاته ديوانا للمرشحين للخلافة يتكون من ستة صحابة أجلاء هم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وأُسند إلى عبد الرحمن بن عوف مسؤولية أن يتولى رئاسة عملية انتخاب الخليفة الجديد . ومن تحليل الروايات يفهم أن الثلاثة الآخرين قاموا بسحب أسمائهم من الترشيح لصالح الثلاثة الأوائل بناء على رأي عبد الرحمن بن عوف ، ثم سحب عبد الرحمن نفسه وأُسند إلى نفسه فقط فقط مسؤولية المساعدة في انتخاب الخليفة ، وكانت الأغلبية العظمى من الأمراء والرؤساء والصحابة الكرام بالمدينة في صف عثمان ، وهذا أصدر عبد الرحمن قراره في صالحه ، وهكذا تم اختيار عثمان خليفة رسول الله الثالث .

ويقرر سيد أمير على ، وهو يمثل طبقة من مؤرخي المسلمين ، أن قرار عمر تشكيل ديوان مرشحي الحكومة كان قرارا خطاطفا ، وقائما على مجرد عصبية دينية ، ويقول - وهو حزين - إن علياً كان يمكن أن يكون خليفة بسهولة من بعده ، إلا أنه لم يفعل ذلك ، فأعطى فرصة لتأمر الأميين على الاستيلاء على الحكم والسلطة ، لأنهم كانوا أصحاب أثر وسلطة ، ليس فقط

في المدينة ، بل كانت بينهم عداوة سابقة مع بنى هاشم أيضا ، وهذا فقد حُرم على من حقه المشروع ، وفتح لقرن من الرمان الباب للظلم والقهر الأسوى . وهو يرى أن خلافة عثمان كانت دماراً ووباءً على الإسلام . وهذا التحليل الذى يعرضه المؤرخ المذكور إنما ينفى وراءه تعصباً فكريّاً وعقديّاً ، وإلا فالتأريخ الإسلامي يرشدنا إلى أن عهد خلافة عثمان رضى الله عنه كان عهداً رقراً وازدهاراً .

ثم يأتي من ناحية أخرى خورشيد أحمد فاروق فلا يترك شخصية من الشخصيات دون لوم أو تبرير ، وذلك في معرض حديثه عن انتخاب الخليفة الثالث ، فهو يتهم الصحابة الستة بأنهم متآمرون ، وأنهم يحبون الدنيا ويحبون الرئاسة ، وكان من وراء تآمرهم على الحكومة والرئاسة الحصول على فوائد مادية ، فقد اتهم عبد الرحمن وسعداً بالتحيز ، واتهم علياً بالتأمر ضد الخليفة ، كما اتهم أيضاً علياً بالتهرب من إعلان بيعته لعثمان وأنه أُجبر فيما بعد على أن يبايعه^(١) ، كما اتهم عمار بن ياسر باتهامات كثيرة ، منها مخالفته ومعارضته للخلافة العثمانية وأنه « أمات الإسلام » وغير ذلك من تعبيرات مشينة . وقد قام فاروق بتوجيهاته بمهارة فائقة فقدمها كلها في ردّه نقله عن الروايات ، ومعظم روایاته روایات شيعية ، وكذلك عن ابن أبي حميد ، أو أنه قام بنفسه بتفسير معنى روایات لم ينقلها وعبر عنها هو كما يحلو له ، وأنختار المؤرخ المذكور الأسلوب المتعصب المنحاز ، فقام بنقل مثل هذه الروايات التي تتعلق بمشاجرات الصحابة الكرام ، إلا أنه تعمد ألا يذكر جميع تلك الروايات التي تشهد على سمو عملهم وسلوكهم ، وتشهد على إخلاصهم وإيمانهم ، ويكتفى أن نورد مثلاً واحداً ، وهو اتهامه لعلي بأنه لم يبايع عثمان رضى الله عنه ، وبعد مدة ، وبعد ضغط من الصحابة اضطر على إلى مبايعة عثمان ، بينما

(١) انظر ترجمتنا لكتاب الورقة الإيرانية في ميزان الإسلام الصادر عن دار الصحوة بالقاهرة . المترجم .

الصحيح وما ورد في الروايات المسندة أن علياً كان أول من بايع عثمان رضي الله عنه بعد اختياره خليفة ، والحقيقة أن خورشيد أحمد فاروق ومن على شاكلته من المؤرخين يريدون أن يجعلوا التاريخ الإسلامي كله تاريخ صراع طبقي ، حتى يمكن أن يثبتوا أن أثر الإسلام وأثر الصحبة النبوية لم يكن أبداً له وجود ، أو أنه لم يثبت مطلقاً أن هناك أثراً .

التامر على الخلافة الإسلامية

لقد تعرض عثمان رضى الله عنه لقدر من الطعن واللعن والذم واللوم بطريقة لم تتعرض لها أية شخصية في التاريخ الإسلامي ، وكان الأمر بالنسبة للأعداء والمعارضين بسبب خططهم النجسة ، ومؤامراتهم الرامية إلى الطعن في شخصيته الكريمة ، وإذا كان لنا من أسف فإنه على قلة فهمهم ، فقد سقطوا في شبكة ما يروجه أعداء الإسلام عن شخصية عثمان .

ومن بين المؤرخين المسلمين طبقة مخلصة مؤمنة ، إلا أنها بسبب قصورها في التحليل الصحيح للتاريخ قبلت الكثير من الاتهامات الخاطئة الموجهة ضد عثمان واعتبروها وقائع تاريخية صحيحة ، فاتهموه بها ، وقاموا بمسخ هذا الباب من التاريخ الإسلامي بسبب تلك المزاعم التي ارتسست ورسخت في عقولهم وأفكارهم وقلوبهم .

وهناك عدد كبير من أولئك الناس الذين قاموا بتحليل خلافة عثمان تحليلًا غير تاريخي وغير علمي ، وذلك بسبب عصبية عرقية أو اعتقاد فكري أو قصور ذهني ، والحقيقة أن سلسلة الاتهامات الموجهة ضد عثمان إنما نبعت من تلك المؤامرة التي أحياها حول الصحابة والأمويين عامة والخلفاء الأمويين بصفة خاصة . وسوف نحاول تحليل هذه المؤامرة بشيء من التفصيل لأنها تهم المهتمين بشئون التاريخ الإسلامي .

عزل وتعيين العمال في عهد عثمان :

يقسم هؤلاء المفترضون مساوين عهد خلافة عثمان (١٢ سنة) رضى الله عنه بصفة عامة إلى قسمين :

القسم الأول مضى فيه الخليفة الثالث يدير شئون الخلافة على النهج الصحيح ، وكان هذا العهد من الخلافة يمضى على نهج النبوة .

القسم الثاني انحرف فيه عن السنة النبوية وسنة الشيوخين ، وأدى بتصرفات خالف فيها حتى أكابر الصحابة ، وفي النهاية وبسبب كل هذا حدث العصيان والتفرد ضده ، وهو ما انتهى بتأسيسه استشهاده . ومع أن بعض المؤرخين لم يثروا قضية تقسيم زمان خلافته إلى تلك الفترتين إلا أنهم قاموا بتردد ثخافة الأعمال الصحيحة والأعمال الخاطئة ، وقد وجهت العديد من التهم إلى عثمان رضى الله عنه ، وفيما يلى عرض وتحليل لهذه الاتهامات في ضوء الروايات الإسلامية الصحيحة حتى نضع أمام القارئ الصورة التاريخية الصحيحة واضحة جلية .

أكبر اتهام وجه إلى عثمان رضى الله عنه أنه في البداية ظلل على عهوده مع الصحابة الكرام ، إلا أنه تدريجيا بدأ في عزل أكابر الصحابة ، ومن بينهم عمرو ابن العاص حاكم مصر ، وسعد بن أبي وقاص حاكم الكوفة ، وأبو موسى الأشعري حاكم البصرة ، والمغيرة بن شعبة حاكم البصرة ، وعبد الله بن الأرقم القائم على بيت المال بالمدينة ، وعبد الله بن مسعود القائم على بيت المال بالكوفة ، مما نتج عنه - كما يقول المؤرخون - هيجان شديد بين كبار الصحابة وال العامة أيضا .

والاتهام الثاني يتعلق بهذا الاتهام ؛ وهو أن الخليفة الثالث قام بتعيين شباب قريش في مناصب كبار الصحابة ، وبخاصة الشباب من أقاربه من لم يؤدوا أي عمل يستحقون به تلك المناصب ، ولم يكن لهم أي دور إسلامي ، ولقد أدت محاباته لأقاربه إلى مزيد من الهيجان . ويرى بعض المؤرخين أن هذا هو السبب في ظهور التفرد والعصيان وحدوث النهاية التي أدت إلى استشهاد الخليفة .

إن سياسة عزل وتعيين العمال (الحكام) كانت تخدمت كسلاح ضد عثمان ، ولكن هذه السياسة ذاتها كانت قائمة منذ العهد النبوى وفي عهد الشيختين ، فقد كان الخليفة في كل وقت يقوم بمثل هذه التغييرات في أعضاء الحكومة طبقاً للمصالح والسياسة ولما يراه صواباً . وقد قام عمر رضى الله عنه بعزل عدداً من حكامه وقادته ومنهم خالد بن الوليد ، وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة وهم من أكابر الصحابة ويفهم من واقعة سعد بن أبي وقاص أن تغييره لم يكن نتيجة لأى خطأ ارتكبه ، بل كان بناء على المصلحة السياسية ، إذ كانت سياسة الخليفة الثاني في الكوفة والبصرة قائمة على استبدال الحكام إذا مالزם الأمر ، وإذا ما طالب المسلمين .

ويفهم من الروايات أن عمر درءاً للفتن التي حدثت في المدن قام بالترتيب وبناء على شكاوى أهل البصرة والكوفة بعزل سعد بن أبي وقاص ، وعمار ابن ياسر ، وأبا موسى الأشعري ، وعمر بن سراقة ، والمغيرة بن شعبة الثقفي . ومن الجدير بالذكر أن شكاوى الناس ضد هؤلاء الحكام شكاوى مسببة فسعد ابن أبي وقاص الزهري لا يؤدى الصلاة بطريقة جيدة ، وعمار ضعيف ولم تكن له قدرة على الإدارة ، وأبا موسى أيضاً مثله ، أما المغيرة بن شعبة فقد اتهم مرة بارتكاب الزنا ، ومرة أخرى بقبول الرشوة .

وطبقاً لإحدى الروايات فقد أوصى عمر خليفةه أن يعيد تعيين سعد بن أبي وقاص حاكماً على الكوفة مرة أخرى ، وهكذا قام الخليفة الثالث في بداية خلافته بالعمل بالوصية وعيشه واليا على الكوفة ، وكان هذا أول مثال لتعيين صحابي جليل القدر في خلافة عثمان ، غير أن مشادة حديث بين سعد بن أبي وقاص والقائم على بيت المال عبد الله بن مسعود ، إذ أخذ الأول قرضاً من بيت المال ولم يده ، وقد ضحّم أهل الكوفة الأمر ، ولهذارأى عثمان أن الواجب يقتضى استدعائه ، وبعدها استدعى أيضاً عبد الله بن مسعود . والذى كان يجز في

نفس عبد الله بن مسعود هو أمر الخليفة بالاستيلاء على مصحفه ، وكان عزيزا عليه ، والاستيلاء على المصحف المسعودي لم يكن أبدا نتيجة ظلم أو قهر ولكن كان من سياسة عثمان رضي الله عنه أن يقوم بجمع المصاحف الخاصة بالقراءات ، والعمل على توحيد القراءات من مصحف واحد في جميع أنحاء الدولة الإسلامية . أما عزل المغيرة فكان بناء على وصية الفاروق . إذ إن الصحابي المذكور قد اتهم خطأ بقبول الرشوة . أما عزل أبي موسى والى البصرة فتم طبقا لسياسة الدولة ، إذ تم بناء على شكایة أهل البصرة ضده ، وعزل عبد الله بن الأرقم المخزومي كان بسبب تقدمه الكبير في السن ، وعزل عمرو ابن العاص حاكم مصر إنما كان بسبب ما حدث بالنسبة لخارج الأقاليم ، وحتى لو لم توجد هذه الأسباب فإن لل الخليفة الحق في عزل قادته أو خلفائه مثل الحكم ، فتعيينهم مشروط بقبول الخليفة وثقته بهم .

وفيما يتعلق بالاتهام القائل بعزل كبار الصحابة ، وعدم تعيين كبار الصحابة بدلاً منهم ، فهناك ردود عددة على هذا الاتهام ، إلا أن هذا الاتهام غير تاريخي بالمرة ، وبعد عزل المغيرة بن شعبة عين الخليفة مكانه أبي موسى الأشعري ، كما قرر تعيين زيد بن ثابت الأنباري مكان القائم على بيت المال عبد الله بن الأرقم المخزومي ، وعلاوة على ذلك فإن كبار الصحابة كانوا قد كبروا في السن بالمقارنة بأعمارهم في خلافة الفاروق ، أو قبلها في خلافة الصديق وفي العهد النبوى . والحقيقة هي أنه كان يتم ترجيح الصف الثاني دائما ، والصف الثالث من الصحابة أو الشباب في ولادة الأقاليم والأعمال ؛ ففي العهد النبوى كان عتاب بن أسيد الأموي في مكة ، وعثمان بن أبي العاص الثقفي في الطائف ، والحارث بن نوفل الهاشمي في جدة ، ويزيد بن أبي سفيان في تيماء ، وخالد بن سعيد الأموي في صنعاء ، وعمرو بن سعيد الأموي في وادي القرى ، وأبان بن سعيد الأموي في البحرين ، وحكم بن سعيد الأموي في

قرى عربية ، وعدد من الأفضل من مجموعة الشباب مثل معاد بن جبل الخزرجي ، وعمرو بن حزم الخزرجي ، وزياد بن لبيد الخزرجي ، وكان بعضهم حديثى العهد بالإسلام تماما ، وأبو سفيان الأموى وابنه الشهير معاوية توليا أهم المناصب فى العهد النبوى . وفي خلافة الفاروق ، وبعد وفاة أخيه الأكبر تم تعيينه على ولاية الشام ، وظل هكذا لعدة سنوات ، بل ظل على ولاية الشام طوال عهد خلافة الفاروق . ويمكن تقديم العديد من الأمثلة على تعيين الشباب فى عهد خلافة الصديق وخلافة الفاروق .

والجزء الثانى من الاعتراض الأول ، وهو أن عثمان قد عين أقاربه وأصدقاءه بدلا من كبار الصحابة ، وعين الوليد بن عقبة الأموى ، وسعيد بن العاص الأموى ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامرى على - بالترتيب - الكوفة والكوفة ومصر ، بينما فاز عبد الله بن عامر بولاية البصرة ، ومروان بن الحكم بوظيفة كاتب الخليفة ، ولم تتم إعادة تعيين معاوية بن أبي سفيان على الشام فقط ، بل أعطى المزيد من المناطق أيضا .

ومن الناحية التاريخية يمكن اعتبار هذا الاتهام صحيحا بصورة جزئية ، فالبعض قد عينهم عثمان ، والبعض كان تعيينهم قد تقرر فى خلافة الفاروق ، وما جاء بالنسبة لمعاوية فقد فاز بولاية فى خلافة الفاروق ولمدة ثمان سنوات ، وأقامه عثمان طوال مدة خلافته على ولايته هذه ، نظرا لما كان له من كفاءة وقدرة على الإداره ، والجميع يعترف بهذه الحقيقة ، أن ولايته من أحسن الولايات من حيث النظام والربط والضبط والإدارة . فهل يعزل الوالى لما يؤديه من واجب جعل ولايته تمتاز عن غيرها بتنظيمها وانتظامها وحسن إدارتها !؟ ثم إن الخليفة كان يثق كل الثقة فيه ، ولم تصدر ضده أية شكوى ، دينية كانت أو سياسية أو إدارية . وبعض المؤرخين يقدمون هذا المطعى ، بل هم يمتنطرون قائلين بأن معاوية صار ملكا للشام بسبب طول مدة حكمه عليها ، وقد استندت

جذوره داخل البلاد ، وأصبحت قوية متينة بحيث أصبح من الصعب زعزعته ، وهذا السبب حدث ما حدث من خلاف مع الخليفة الرابع ، رغم أن الخلاف مع الخليفة الرابع كان من نوعية أخرى سوف نبحثها فيما بعد .

وقد كان الوليد بن عقبة الأموي أكثر من تعرضوا للدم من عمال عثمان رضي الله عنه ، فقد وجهت له الاتهامات من كل نوع ، من بينها الاهتمام بالسحر ، والخمر ، ونقض العهد . وإشاعة الفرقة بين طبقات المسلمين ، وفي العهد النبوى عُهد إليه بجمع الصدقات من قبيلة بنى المصطلق ، لكنه - طبقاً لبعض الروايات - عاد دون أن يجمع الصدقات ، وبسبب عناده الجاهلي ، وصل إلى رسول الله وأخبره بأن القبيلة رفضت أداء الصدقات ، وأنهم يعدون العدة للهجوم على المدينة ، وكان رسول الله على وشك الهجوم عليهم ، وإذا بوفد من بنى المصطلق يصل ويطلع الرسول على أمر الوليد بن عقبة ، فنزلت الآية رقم ٦ من سورة الحجرات في حقه^(١) . والتي ورد فيها لفظ « فاسق » صفة لعامل الصدقات .

وهذه الرواية بأكملها تضمنت نقاطاً جديرة بالاعتراض والرفض . وقد قرر عدد من المفسرين بوضوح أن المراد بـ ﴿فاسق﴾ ليس الوليد ؛ لأنه كان صحابياً جليلاً ، وتأكيد هذا الأمر هو أنه رضي الله عنه قد تولى عهدة عامل الصدقات في أوائل خلافة الصديق ، ثم تم تعينه أيضاً قائداً للجيش الإسلامي ، وفي عهد عمر عين عيناً عاملًا للصدقات أولاً ، وبعدها حاكماً للجزيرة ، ومن هنا غيره عثمان وجعله حاكماً على الكوفة ، ويتبين تماماً من روایة ابن خلدون أن تعينه في الأصل كان تغييراً ، فقد ظل منذ خلافة الفاروق في وظيفة حاكم ، ويعترض بعض المؤلفين بأن الخليفة الثالث قد نقله من وظيفته

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ يَتَّبِعُهُ فَقِبِّلُوا أَنَّ ثُبَّيْرُو قَوْمًا بِيَهَاهَةٍ ﴾ . الحجرات ٦ (المترجم) .

كحاكم على جزيرة صغيرة ليعينه على الكوفة ، وهى ولاية كبيرة ، وهذا الأمر خطأ من الناحية التاريخية ، فمقاطعة الجزيرة لم تكن أبداً قليلة الأهمية ، فقد عين عليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

ومن التهم الأخرى الموجهة إليه تهمة شرب الخمر ، وهى تهمة كبيرة تستلزم الحد إذا ما ثبتت عليه ، وهناك تناقض كامل في جميع الروايات الخاصة بهذه التهمة ، رواية تقول لقد كان هذا في صلاة الفجر ، أو صلاة أخرى ، ووصل أربع ركعات وهو سكران وتضرر المؤممنون وغير ذلك من الاتهامات .

هذا ... وقد ذكر الطبرى رواية برأته مما نسب إليه من تهم ، وربما كانت أقرب إلى التصديق ، وقرينة للقياس ، وطبقاً لهذه الرواية فقد كانت هناك مؤامرة تحاك للطعن في الوليد بن عقبة ، مما نتج عنها اتهامه بالسكر . وكان القائمون على هذه المؤامرة ثلاثة ، هم : أبو مورع الأسدى ، وجندب بن زهير الأزدى ، وأبو مصعب بن جثامة ، ومعهم مالك الأشتر النخعى .

والثلاثة الأوائل من مثيرى الفتنة ، وقد أرادوا الانتقام من الوليد لقتله أبناءهم ، وقد حكم على قاتلهم بالموت ، أما مالك النخعى فقد كان من مثيرى الفتن والعصيان ضد عثمان . ومن الجدير بالذكر أن تهمة الشراب والسكر يمكن إثباتها عن طريق شهادة كاذبة ، وكانت التهمة أساساً نتيجة لمؤامرة حاكها أكابر الكوفة الغاضبون ، وطبقاً لرواية الطبرى كان للوليد مكانة طيبة ومحبة في قلوب العامة ، بينما كان الأكابر غاضبين منه ، ولم يكن هذا الغضب بناء على أى سبب دينى أو أى سبب معقول ، بل كان بناء على أغراض ذاتية . والحقيقة أن أى حاكم من حكام الكوفة لم ينج أبداً من الاتهامات ؛ لأن أهلها وبخاصة أكابرها اعتادوا إثارة الفتنة .

وبعد عزل الوليد بن عقبة الأموى عن حكم الكوفة قام الخليفة الثالث في سنة ٢٩ هـ بتعيين أحد أقاربه وهو سعيد بن العاص الأموى واليا على

الكوفة ، إلا أن أحداً لم يعترض على هذا التعيين ، بل إن أشراف الكوفة الذين تسبوا في عزل الوليد عادوا معه إلى الكوفة ، ولم يتم أحد الخليفة الثالث بأنه عين أحد أقاربه ؛ لأنه كان صاحبها جليلاً ، وكان عضواً من أعضاء مجلس كتابة وتدوين المصحف العثماني ، وكان ذا شخصية عالية ، وظل والياً على الكوفة لخمس سنوات ، واعترف الجميع بما له من قدرة على الإدارة ، وبما له من كفاءة وصلاحية . وفي نهاية خلافة عثمان حين طالب أهل الكوفة بتعيين الحاكم ، قام عثمان بناءً على طلبهما بتعيين أبي موسى الأشعري حاكماً للكوفة .

أما طلب عزل أبي موسى الأشعري عن ولاية البصرة ، فقد قدمه أكابر المدينة . كما طالبوا أيضاً بتعيين حاكم شاب قادر على الإدارة ، وهكذا قام عثمان بالاستجابة إلى طلبهما . وعيّن عبد الله بن عامر بن كُريز حاكماً للبصرة . وكان بقاوئه في وظيفته هذه راجعاً إلى ما له من قدرة إدارية أو ما أداه من خدمات جليلة . بل كان ذلك لأنه يُرضي مثيري الفتنة بالبصرة ، وهذا هو السبب الذي جعله يبقى في وظيفته هذه حتى آخر خلافة عثمان ، ولم يشك أحد منه ، وقد جاء مدرج أعماله الطيبة على لسان على رضي الله عنه .

وبعد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر تم تعيين عبد الله بن سعد ابن أبي سرح العامري ، ولم يكن أموياً ، بل كان أخاً لعثمان رضي الله عنه في الرضاة . وصحيح أن عبد الله ارتد عن الإسلام بعد أن أسلم ، إلا أن الحقيقة تشهد أنه تاب وأصلح وعاد إلى الإسلام ، وجميع الروايات تشهد بأنه كان مسلماً صالحاً وصادقاً . وأولئك الذين أسأوا إليه بسبب ارتداده ينسون أن الإسلام يحب ما قبله ، كما ينسون أن سخريتهم به ليست من العدل في شيء ، ففى زمان ولاية سعد رضي الله عنه على مصر ، زاد خراجها زيادة كبيرة ، وهذه الزيادة قد رأها البعض نتيجة للظلم والقهر ، على حين ثبت الأبحاث أن ذلك كان نتيجة لحسن إدارته . لقد أقام صلة مباشرة بين الحكومة والزارع

وأصحاب المنتوجات ، وقام بفصل الوسطاء^(١) ، الذين كانوا يقومون بتحصيل المبالغ كاملة لكنهم لا يؤدونها للحكومة كاملة ، بل يحجزون لأنفسهم بعضها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن حق الباحث أن يعترف بما كان له من حسن الإدارة والنظام .

والحقيقة أن الناس غفلوا عن منجزاته هذه ، واتهموه بناء على عداوتهم لبني أمية ، ولم يفهموا كم يرتكبون من مخالفات في حق التاريخ الإسلامي . لقد قامت جماعة من المؤرخين ب النقد مروان بن الحكم الأموي أيضا ، ومن المؤسف أنهم استخدموا لذلك أسلوبا غير لائق ، ووجهوا له اتهامات يصعب على العقل أن يقبلها ، ومن تلك الاتهامات أنه قد سمح لأبيه بالتدخل في شؤون الحكومة ، وأنه قد اختاره كاتبا [سكريبا] لل الخليفة ، وهذا المنصب من المناصب المهمة ، وأنه سلك سلوكا غير مقبول مع بعض الصحابة الكرام ، وغير ذلك .

لقد قبل المؤرخون كثيرا من الروايات التي سيقت ضد مروان ، وسكت بعضهم عن كثير من الروايات التي تتحدث عن الجوانب المضيعة في شخصيته وسيرته . لقد كان عالما بالتفسيير ، ولقد قرر الحافظ الذهبي أنه كان قارئا وفقيرا ومتمسكا بالحدود الإلهية . والمحذون يرون أنه محدث ثقة ، وقد روى عنه الإمام البخاري في كتابه ، وقد قرر الحافظ ابن حجر في الإصابة ومقدمة فتح الباري أنه كان ثقة في الحديث . وهي تدل على علو مقامه .

إن ما جاء ذكره بالنسبة لاتهام عثمان رضي الله عنه بتفضيله ومحاباته للأمويين هو اتهام يتنافي مع حقائق التاريخ .

والدليل الذي يقدمه المتهمون هو أن عظماءهم لم يعينوا أقاربهم في مناصب الحكومة ، والصحيح أن القرابة لم تكن أساسا للتعيين ، كما لم تكن شرطا

(١) وهم من أطلق عليهم في فرات متأخرة « أصحاب الالتزام » . الترجم

ضروريا للحرمان من المناصب ، والشرط الأصلى كان اللياقة والكفاءة ، وقد انطبقت هذه الشروط بتهاها على عمال عثمان رضى الله عنهم ، ونظرا للكثرة العددية لأسرته وجد من بينهم العديد من الأفراد الأكفاء . ويدرك التاريخ أنه ابتداءً من العهد النبوى وحتى العهد العثمانى تولى الأميون باستمرار مناصب الحكومة ، وهذا فاتهام بعض المؤرخين لهم بأنهم حاولوا في العهد العثمانى الاستيلاء على مناصب الحكومة عن طريق التآمر ، وأئمهم نجحوا في ذلك ، اتهام ربما ابعد عن الصواب كثيرا ، ثم إن اتهام أحد بمحاباة أقاربه وتفضيلهم إنما يكون صحيحا إذا ما أنسدلت إليهم الوظائف بمفرد أنهم أقارب فقط ، كما أن حرمان القريب الكفاء من الوظيفة بسبب القرابة ليس عدلا إسلاميا ، بالإضافة إلى ذلك فهناك حقيقة هامة يجب أن ننظر إليها من منطق أن عدد أقارب الخليفة بين جميع عمال عثمان كان قليلا ، ونسبةهم كانت بسيطة وعادية ، ومن بينهم عدد قام بتعيينه رؤساؤهم المباشرون ، والحقيقة أن إلصاق تهمة المحاباة وتفضيل الأقارب بال الخليفة الثالث ، والقول بأنه تسلط ، فعزل هذا وعين ذاك ، إنما هو جزء من مؤامرة كريهة حيكت ضد الخلافة الإسلامية ، ولسوف نلقي الضوء عليها بعد قليل .

التصرف في بيت المال :

من بين العديد من التهم الأخرى الموجهة من جانب المؤرخين المغرضين في حق عثمان رضى الله عنه ، تهمة أكبر من جميع التهم الأخرى ، وهي التصرف بطريقة غير مناسبة في بيت المال الرسمي ، وإغداق الأموال دون وجه حق على أقاربه ، وهناك رواية تقول بأن الخليفة الثالث قد وهب مروان بن الحكم خمس أفريقيات ، وأعطى عبد الله بن مسعود خمس مصر ووهد خير عبد الله بن خالد .

لقد كان عثمان رضى الله عنه ثريا ، رزقه الله المال الوفير ، وما كان يعطيه

لأحبابه وأقاربه إنما كان يعطيه من ماله الخاص . لا من خزانة الدولة الرسمية . أما الهبات والمدحيات لأصحاب الوظائف فقد كانت لحسن خدماتهم ، وهى سياسة قديمة قام بها عمر رضى الله عنه إذ وهب أنس بن مالك مبالغ وصلت من البحرين ، بالإضافة إلى هذا ، فهناك روايات أخرى تفيد بأن سبب اعتراف الناس هو أن الخليفة الثالث قام باسترداد هذه العطايا المقدمة للثلاثة المذكورين ، وأدخلها في بيت المال ، وقد ذكر ابن خلدون أن مروان كان قد اشتري خمس أفريقيي . وأنه لم يكن عطيه من الخليفة ، وقد خطأً جميع الروايات التي تشير إلى مسألة العطية ، وعلى ذلك فربما كانت هذه الاتهامات من تعصب بعض كتاب التاريخ .

القطائع :

وهناك اتهام آخر موجه ضد عثمان ، ويتصل بالقطائع أو الإقطاعيات ، والتاريخ يشير إلى أنه قد جرى العرف طوال العهد النبوى بذلك ، فقد قام رسول الله ﷺ بإعطاء مختلف الناس إقطاعيات متنوعة ، وكذلك كان أبو بكر وعمر ، فقد قام أبو بكر بمنع إقطاعيات للزبير وطلحة ، وكانا من أقاربه ، ومن نالوا كرم قطائع الفاروق : عثمان وعلى والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت الخزرجي ، وطبقاً للعرف السابق ، فإن الخليفة الثالث قام في فترة خلافته بإعطاء بعض الناس قطائع نظير خدماتهم واستحقاقاتهم ، من بينهم عثمان بن أبي العاص الثقفي ، وعبد الله بن مسعود ، وعمر بن ياسر ، والزبير وخيّاب بن الأرت ، وأسامة بن زيد ، وسعد بن أبي وقاص ، وكان من بينهم فقط الزبير الذي تربطه به علاقة مصاهرة . وبذلك في ضوء جميع هذه الحقائق أن الاتهام الموجه للخليفة الثالث إنما هو اتهام غير صحيح .

محاسبة العمال :

ومن الاتهامات الموجهة إلى عثمان تأخره في محاسبة عماله على جرائمهم ،

ومثال ذلك أنه لم يقم بإجراء حد شرب الخمر على الوليد بن عقبة ، كما أنه لم يحاسب مروان بن الحكم ، ولم يوقفه عن تهدياته ، وطبقاً للروايات التاريخية فإن الخليفة حين سمع الشهادات كاملة عن شرب الخمر في حق الأول لم يتباطأ في إقامة الحد عليه . ويتبين من الروايات أنه قام بالحجر على مروان في حينه . أما ما يتعلّق بموضوع عدم إقامة الحد على ابن عمر لقتله الهرمزان وجفنية فقد قام هو نفسه طبقاً للإجازة الشرعية ، وطبقاً لجمع الصحابة الكرام بدفع دية القتل من جيشه الخاص ك الخليفة ، وهذا فليس هناك قضية تتعلق باتهامه بتأخير تنفيذ الحكم .

الاتهامات الأخرى :

إن قائمة الاتهامات الموجهة ضد عثمان رضي الله عنه قائمة طويلة ، إلا أن عدداً من المؤرخين قاموا بتفنيدها والرد عليها ، واعتبروها اتهامات باطلة أساساً ، وهذه الاتهامات من النوع القائل بالصلة أربع ركعات أثناء الحج في مكة ، وأمور كثيرة يمكن أن يطلق عليها أنها اختلافات فقهية ، وكان عثمان رجلاً صاحب بصيرة ، وعارفاً بالشريعة ، ولا يمكن أن يقال هنا غير ذلك . كما يتضح من استعراض الأحداث التاريخية أن هذه الاتهامات كانت نتيجة مجرد تعصب أعمى وعداء دون حق ، وجهل بالتاريخ .

أهم ملامح السياسة العثمانية :

هناك نقطتان تتعلقان بملامح السياسة العثمانية بالنسبة للعمال الأولى : أن الخليفة أعلن في جميع البلاد أنه ستم محااسبة العمال علّنا كل سنة وفي موسم الحج ، ومن لديه شكوى فعليه أن يقدمها لل الخليفة مباشرة ، وتم تنفيذ هذا الأمر . الثانية هي أنه حين وصلت الشكاوى ضد العمال بكثرة إلى المدينة المنورة قام عثمان بناء على مشورة كبار الصحابة بتشكيل لجنة للتحقيق نيابة عنه فيما نسب إلى عمال الأنصار وبموجب رواية للطبرى ، تم إرسال محمد بن مسلمة

الأنصاري وأسامة بن زيد الكلبي وعبد الله بن عمر العدوى ، وعمار بن ياسر إلى الكوفة والبصرة والشام ومصر بالترتيب ، وذلك للتحقيق في الشكاوى ، وأشار جميع هؤلاء الصحابة (ماعدا عمار بن ياسر) بعد أن أجروا التحقيقات المطلوبة « إلى أنهم لم يروا هناك أى أمر غير مرض » . وقد خالف عمار في ذلك . ولم يكتفى عثمان بهذا ، بل طلب عمال الولايات واستجوبهم واطمأن إلى إجاباتهم ، وأصدر حكمه بإعادتهم ، ولكن في أثناء ذلك تمت المؤامرة الخبيثة التي هدفت إلى الطعن في عثمان وعمله ، وأعلن العصيان ضد الخلافة الإسلامية ، واستشهد عثمان رضى الله عنه ، وتفتت الوحدة الإسلامية .

وتشير المصادر إلى أن أول شخص وضع البذرة الأولى في المؤامرة ضد عثمان هو عبد الله بن سبأ ، الذي ارتدى رداء الإسلام بعد ترك يهوديته ، حتى يكمل أهدافه الكريهة ولقد أصاب بسهمه عصافورين ، إذ عرض تصوراً مبالغًا فيه لحب أهل البيت ، وجعل الخلافة حقاً موروثاً لعلى رضى الله عنه ، ومن ناحية أخرى جعل خلافة عثمان غير شرعية . وطبقاً لما ورد بالطبرى فقد بدأ نشر مؤامرته من محاور ثلاثة .

المحور الأول أنه أثار الناس ضد عثمان تحت غطاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والمحور الثاني محاولة التشنيع والإساءة إلى العمال العثمانيين . والثالث نشر الإشاعات عن محاباة الخليفة الثالث لأقاربه .

ويفهم من رواية أخرى للطبرى أن الشاميين قاموا بنشر الكراهية ضد الحكومة بطريقة مخططة محكمة ، وكانوا يعرفون تماماً أن العامة والخاصة لن يتحملوا أبداً أى اتهام ضد شخصية عثمان وذاته ، وأنهم لو اعتمدوا على ذلك فسوف تفشل حركتهم من أوطاها ، ولهذا بدأوا معارضتهم للحكومة بإثارة الفتنة ضد عمال عثمان على أساس توجيهها إلى الخليفة فيما بعد إذا قبلها الناس ،

واختار هؤلاء لتنفيذ مخططهم معسكرات الكوفة والبصرة ، حيث التربة خصبة تماماً للمؤامرات ، فهى من حيث كونها مدنًا جديدة ليس لها سكان أصليون ، وليس لها مثل أو تقاليد ، وكان عبد الله بن سبأ في مراكز الغدر هذه العديد من المؤيدين وقد قام هو بنفسه كأرسل دعاته ونقباءه فقاموا بالدعابة التي كان من نتيجتها إثارة الفتنة ، تلك الفتنة التي تُخدع بها الكثيرون من البسطاء ، وانطلقت الشرارة الأولى للمؤامرة في الكوفة ، أما نيران الفتنة في البصرة فقد أوقدها عبد الله بن سبأ بنفسه ، إذ تآمر مع أحد قطاع الطرق المشهورين هناك ، ويدعى حكيم بن جبلة ، وقاد حركة النقد واللوم والتجریح . إلا أنه أخرج من هناك بسرعة فوصل إلى الكوفة حيث انضم إلى أهل الفتنة التي اشتدت هناك ، ثم أخرج من هناك فذهب إلى الشام ، لكنه لم يتمكن من التحرك هناك فوصل في النهاية إلى مصر ، حيث وجد بها معارضين لعثمان ، هباه محمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر ، ونظرًا لعداوتهم الشخصية ، قاداً حركة العداء ضد عثمان وحكومته . وتلقى روايات الطبرى وابن الأثير الضوء على نشاطاتهم .

وبوصول عبد الله بن سبأ إلى مصر وجدت حركته لها قائداً . وبدأ عدد المتأمرين ومثيري الفتنة يزداد تدريجياً ، وبعد ذلك ، وطبقاً لخطته تم الهجوم على المدينة المنورة مركز الخلافة ، حيث وضعت خطة قتل الخليفة الثالث ، وطبقاً لهذه الخطة وصل المتأمرون في وقت واحد من ثلاثة جهات مختلفة ، الكوفة ، والبصرة ، والفسطاط . ولقد اختاروا وقتاً كانت فيه المدينة خالية من معظم الصحابة الكرام ومن الجيش ، فقد كان ذلك في شهر الحج ، ووصول الجموعات الثلاث في وقت واحد إلى المدينة إنما يدل على التآمر الدافع . وكانت ذريعتهم في ذلك هي الحصول على موافقة الخليفة على مطالبيهم ، وهكذا وحين وافق الخليفة الثالث على مطالبيهم بناء على مشورة

ووساطة كبار الصحابة لم يكن أمامهم من سبيل سوى العودة ، إلا أنهم لم يكونوا ليعودوا دون أن يتحققوا مرامهم وهدفهم الخبيث ، وفي الطريق قاموا بالعودة بمحجة بعض الخطابات المزورة ، ويعلم من الطبرى والمصادر الأخرى أن علیاً ناقش هؤلاء التمردین ، وحاول أن يثيّبهم عن عزّهم ، إلا أنهم في هذه المرة جاءوا مصمّمين على تفزيذ مخططهم . فحاصروا المدينة ، ولم يكن أهل المدينة وكبار الصحابة على علم بهذه المؤامرة الخطرة ، كما لم يكونوا على استعداد لمواجهة هذه المحاصرة ، لهذا كانوا جميعاً بلا حول ولا قوّة ، ولم ينج أحد من أيدي التمردین إلا ونال الإيذاء ، وهكذا جلس الكثير من الناس في بيوتهم لا يبارحونها ، ولا شك أن عدداً من الصحابة الكرام وأولادهم قاموا بحماية الخليفة الثالث حماية كاملة ودافعوا عنه .

قام التمردون أولاً بالإمساع إلى عثمان في المسجد ، وأخذوا يلقون عليه بالطوب ، لدرجة أنه سقط مغشياً عليه وهو ينحني في الناس وبعد ذلك قاموا بمحاصرة منزله ، فمنعوا عنه الطعام والماء . وقام عدد من الصحابة وأمهات المؤمنين بالخاطرة بالرُّوح حتى أوصلوا إليه الطعام ، وفي النهاية قرر العصابة التمردون اغتيال الخليفة لأنّه رفض طلبهم بالتنازل عن الخلافة ، فقاموا بالهجوم على بيته لكنهم لم يتمكّنوا من الدخول من البوابة الرئيسية ، حيث وجد عدد من الفدائين يدافعون عن الخليفة ، وهذا تسلّقوا الحائط المؤدي من منزله إلى طريق المسجد ، وكان من بين هؤلاء محمد بن أبي بكر ومالك بن الأشتر التخعي وسودان بن حمران ، وكتانة بن بشر التميمي وغيرهم ، وهجموا على الخليفة ، بينما كان يتلو القرآن الكريم . وتفجر الدم الطاهر على أوراق المصحف ، ونجحت مؤامرة المتأمرين ، وانفرط عقد الأمة الإسلامية .

الفتنة الكبرى :

يطلق المؤرخون المسلمين على الفترة من بداية المؤامرة ضد الخليفة الثالث

عثمان رضي الله عنه اسم «الفتنة الكبرى» وهذا اسم على مُسمى ، إذ انفرط عقد الخلافة الإسلامية وتفتت وحدة الأمة ، وتخاصل المسلمين وتناحروا وانقسمت الأمة الإسلامية حينذاك إلى ثلاث مجموعات متحاربة ، وإلى جماعة غير متحازة . مجموعة كانت في صف على تؤيده وتسانده وقامت لانتخابه خليفة رابعا بعد استشهاد عثمان في المدينة المنورة . وجموعة أخرى كانت مع عائشة الصديقة رضي الله عنها ، وكان من حماتها الزبير وطلحة ومن في صفه من وقفوا يطالبون بالقصاص لمقتل عثمان ، وقادوا حركتهم أولا في مكة وبعد ذلك في البصرة . والجموعة الثالثة وهي الجماعة القوية ، وضمت حمزة معاوية ابن أبي سفيان وإلى الشام والأوفى له ، وقد قاموا يطالبون بالقصاص من مقتل عثمان ، وأنكرت هذه الجماعة الاعتراف بخلافة علي . والجمعة الرابعة ضمت من احتاط من الصحابة الكرام وكبار المسلمين من لم يرغبو في أن يلوثوا أنفسهم بالحرب الداخلية بين المسلمين ، ولهذا ظلت هذه الجماعة واقفة وحدها منفصلة عن الجميع .

حدث هذا في حين وصلت الأمور إلى درجة من العمopus والتعقيد يصعب معها التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين الحق والباطل ، إذ كانت كل جماعة تعتبر نفسها على حق والآخرين على باطل ، كان على يرى أنه الأحق بالخلافة ، ولهذا كان من الضروري أن يباعي جميع المسلمين ، ومن ناحية أخرى كان الحق مع مطالبة عائشة ومعاوية بالقصاص من قاتل عثمان . وعلى الخليفة الرابع أن يقتضي منهم ، فإن لم يفعل فهو متهم بحمايةهم لهم ، هذا بينما كانت دعوى على رضي الله عنه أنه لا حول له ولا قوة ، وكان هذا إلى حد كبير صحيحا في بداية خلافته ، نتيجة لما كانت عليه الظروف من تعقيد في هذا العصر الذي سمي بمحق عصر الفتنة الكبرى .

وربما حملت وجهة نظر المؤرخين القدامى بعض التعصب وربما كان في

رواياتهم فيها الكثير من الميل القبلية أو الميل الطائفية ؛ لذا كان من واجبنا الوقوف بحذر أمام كثير من رواياتهم .

السيدة عائشة وحركتها الإصلاحية :

يتم بعض المؤرخين المؤيدین لعلی رضی الله عنہ سواء القدامی منہم أو المحدثون عائشة ومن معها بإعلان العصیان ضد الخليفة صاحب الحق ، وقالوا بأنهم كانوا على باطل ، وفي هذا الصدد ذکر المؤرخون القدامی بعض الروایات التي تؤید علیا وتعارض هؤلاء الكبار من الصحابة والتابعین . وعلى سبيل المثال فی حديثهم عن واقعة الجمل ذکروا رواية عائشة ، وهی رواية نبایح کلاب قریة مروا علیها ، وأن رسول الله ﷺ قال ما معناه أن هؤلاء الثلاثة على باطل وسوف يحاربون علیا في يوم ما ، وطبقا للرواية الأخيرة فإن طلحة والزیر ترکا میدان القتال بناء على تذکیر علی هم ، واعترفا بخطئهم ؛ والحقيقة أن الروایات الثلاث موضوعة ولا تستقيم على محک الروایة والدرایة کلیهما ، ويفهم من الروایات الصحیحة للمصادر أن هدف عائشة ومن معها هو القصاص من قاتل عثمان حتى يمكن سد باب الفتنة وينصلح حال الأمة .

لکن خورشید احمد فاروق لم یترك شخصیة في هذا الأمر دون طعن أو تبریع ، فرأی أن طلحة والزیر كانوا يريدان الخلافة ، وأنهما قد حاولا بكل قوة الحصول عليها مثلهم في ذلك مثل علی ، وقاموا بالإغداق على مؤیدیهم السياسيین من أموالهم وثرواتهم في الكوفة والبصرة ، ولكن حين أیدت الكوفة علیا وبايعته ... ضعفت الفرق الأخرى وأخذت البيعة بالقوة من طلحة بن عبید الله والزیر بن العوام . إن اتهام طلحة والزیر باتخاذ إجراءات تهدف إلى الحصول على الخلافة ، وتشكيل فرق سياسیة ، والتمسح بدم عثمان هو مجرد اتهام . إنهم لم یحاولا أبدا الحصول على الخلافة ، وقد كانوا أول من قاما بسحب اسیمیما بناء على اقتراح عبد الرحمن بن عوف من بين المرشحین في المجلس الذي شکله عمر ،

وهذا دليل بينٌ واضح في سلوكهما ، ثم إن الواقع التاريخية في مكة والبصرة ترد بطريقة كاملة هذه التهمة ، فلو كانا يريدان الخلافة لما تصالحا أبداً مع علىٰ . «إن هذين الصاحبين الجليلين قد طالبا علياً بحكومة الكوفة والبصرة ، ورفض علىٰ إعطاءهما هذا المطلب وهذا خالفاً» . هذا اتهام لا تصدقه ولا تؤيده أية رواية تاريخية . وصحيح أنهما كانا يؤمان بضرورة القصاص من قاتل عثمان ، وقد كانا صادقين في هذا الأمر ، ورؤيتهم لقتلة عثمان في جيش علىٰ جعلهم علىٰ يقين من صدق موقفهم .

ولقد اتهم سيد أمير على السيدة عائشة قاتلاً بأنها عارضت علياً بسبب عداء شخصي ، واشتركت في حرب الجمل ، بينما قام خورشيد أحمد فاروق باتهامها بمحاولة تعيين طلحة بن عبيد الله التميمي أحد أقاربها طمعاً في الثروة ، ونظرها للعصبية القبلية بالإضافة إلى اتهامها بالشكوى من أمور شخصية ، والتهمتان لم تثبتا بأى شكل من الأشكال في أى مصدر من المصادر ، ويتبين من خطابات عائشة ، ومن بياناتها التاريخية ، ومن سير الأحداث أنها أرادت حل قضية تهم الأمة ، ولو كانت فيها هذه العصبية لما اقترحت أن يقوم عمر بإمامية الصلاة بدلاً من والدها في مرحلة مرض رسول الله ﷺ ، ثم يتضح من كلامها قبل وقعة الجمل أنها كانت تعمل بكل إيمان وصدق من أجل الحق .

سلوك علىٰ :

اعتبر خورشيد أحمد حمامة على لقاتل عثمان ، وتأييده لهم ، وتنصيب نفسه خليفة بتعاونهم ، ورفضه تقديمهم للقصاص ، خطأً كبيراً ، كتب يقول : «إن أولئك الذين اشتركوا أو قاموا بقتل الخليفة السابق ، قاموا بتنصيب علىٰ خليفة ، ولا يمكن أن يهز أساس خلافته بتسليمه إليهم لمعارضيه ليقتصوا منهم» وكانت الصعوبة التي تواجهه علياً أنه كان يعرف أن القتلة موجودون داخل جيشه ، إلا أنه لم يكن قادراً على معرفتهم وتمييزهم ، ولكن المودودي يرى

أنه قد تأذى وأعلن براءته منهم ، وقبل حرب صفين وصل مبعوث معاوية للباحث مع علىٰ ، فقام جيش علىٰ الذى كان يضم الآلاف بالدق على الطبول معلنًا أنهم جميعاً قاتلو عثمان ، وصار الوضع في غاية التعقيد والغموض ، ووسط هذه الظروف كان التعرف على القتلة وعقابهم أمراً مستحيلاً ، فلو كانت الظروف مواتية لأمكن الكشف عن القتلة ، ولأمكن عقابهم . إلا أن الأحداث تطورت بسرعة فائقة لم تسمح بوجود تلك الفرصة .

احتياج معاوية :

معظم مؤرخينا يعارضون معاوية ، ويلقون على أكتافه بمسؤوليات حرب صفين ، وهم يرون أن معاوية اتخذ من قصة القصاص لعثمان ذريعة لاستكمال أهدافه السياسية ، فأثار مشاعر أهل الشام ، وأعدق على الناس بالأموال ، حتى جعلهم في صفة ونتيجة لذلك نجح نجاحاً كاملاً في تحقيق أهدافه .

وكان معاوية ورفاقه في العمل من مثل عمرو بن العاص يرون قتلة عثمان داخل جيش علىٰ فيشعرون أنهم على حق ، وقد أعلنوا عن ذلك فيما كتبوه إلى عل خاصه وكبار الأمة بصفة عامة . وأكبر المدافعين عن علىٰ من مؤرخينا وهو المودودي يكتب أن علياً : « بعد موقعة الجمل ... تغير سلوكه تجاه قاتلي عثمان ، وظل يتأذى من هؤلاء الناس حتى وقعة الجمل ، وتم لهم بقلب غاضب ، وكان يتضرر الفرصة للقبض عليهم ، إلا أنه تدرجياً حدث تقارب بينه وبين أولئك الناس الذين أثاروا الفوضى ضد عثمان ، ثم صاروا في النهاية مسؤولين عن قتله ، حتى أنه أُسند منصب الولاية لمالك بن الحارث الأشتر ومحمد بن أبي بكر ، بينما يعرف الجميع الدور الذي لعباه في مقتل عثمان ... » ومن الواضح أنه وسط هذه الظروف المعقّدة فإنّ اتهام معاوية بأنه على باطل تماماً إنما هو اتهام غير صحيح ، والتحليل المقبول هو ما ينسب في التاريخ إلى سيدنا علىٰ ، حين سُئل عمن مات على حق وعمن مات على باطل ، فقال :

«إن من حارب في سبيل مرضاة الله سينال الجنة ، ومن حارب طلبا للجاه والحرص على الدنيا فهو في النار» وقد جأ المؤرخون عموما إلى الإفراط والتغريط وهم بقصد تحليل أحداث الفتنة الكبرى ، والسبب في ذلك هو جميع المزاعم والأفكار التي رسمت في أذهان الناس منذ فترات طويلة ، ولقد ساهم مؤرخونا القدماء بدور أساسي في تشكيل هذه الأفكار ، والذين كانوا بصورة واضحة منحازين إلى صف على ، وكانوا يعارضون من يعارضه ، ولهذا يجب على القراء أن يحذروا حين يطالعون كتبهم بصورة عامة ، وكتب المؤرخين الجدد بصفة خاصة ، ويجب أن نقبل الروايات بشقيها بعد دراسة وفحص وتحقيق .

خاتمة المطاف

يتضح من البحث المفصل السابق نوعية الهجمات المغرضة للمستشرقين والمؤرخين المغرضين على أهم فترات وأحداث التاريخ الإسلامي ، وقد ألقينا بنظرة في هذا الصدد على كتابات المؤرخين المسلمين الأوائل وكتابات المستشرقين والمؤلفين المحدثين التي بنيت على تحليل وتفسير الروايات التاريخية بطريقة خاطئة . وكان ذلك نتيجة للميل الفكرية هؤلاء المؤرخين ، ونتيجة لتأثير عامل العقائد الدينية ، وهذا يجب علينا أن نقف من كتاباتهم في يقظة ، وألا نقبل آرائهم في سهولة ، وأن نلاحظ الأمور التالية :

الأمر الأول : أن نلاحظ دائمًا في الروايات والمصادر الإسلامية القديمة أن الراوى كثيراً ما يتأثر بميله الذاتية ، فلا يحتاط في قبول أو رفض الروايات ، كما أنه قد يتأثر بعاطفته القبلية ، ومع هذا فإن أكثر ما كتبوه طبقاً لإيمانهم وطبقاً لعقيدتهم كان صحيحاً من وجهة نظرهم ، فليست كل رواية من رواياتهم مشكوكاً ومشتبهاً فيها ، وأكثر الروايات صحيحة ، ولو علم القارئ الاتجاه الفكرى لكل راوٍ ومُؤلف فسوف يفهم جيداً وجهة نظره ومدى الصدق في رواياته .

الأمر الثاني : يجب الانتباه فيما يتعلق بالمؤرخين المسلمين الكبار إلى ما يذكر عن الرواية الأوائل لأنهم كانوا ينتمون إلى مناطق مختلفة ، وأنهم كانوا عراقيين ، وقد يلاحظ موقفهم ضد الشاميين والأمويين على الخصوص ، وقد يميلون إلى العباسيين ويعارضون الأمويين .

الأمر الثالث : أن مؤرخي القرن الثالث الهجرى وما بعده كانوا جامعى روايات ، فإذا ما وجدت في كتاباتهم تأييداً أو معارضة لطبقة ما أو فرد ما ،

فيجب أن ينتبه القارئ ، فقد يكون الأمر على عكس ذلك ، لأنهم يعتبرون جمـع الروايات من كل نوع ، سواء كانت صحيحة أو ضعيفة واجبا عليهم ، ولا يرون من الـضرورة أو من واجبـهم نقدـها أو التعليـق علـيـها ، ولا يـرون ذلك من واجـبات عملـهم ، بل يـترـكـون عمـلـيـة النـقـدـ لـلـقـرـاءـ ، وـهـذـا لا يـجـبـ أن تـقـبـلـ روـاـيـاتـهـمـ عـلـىـ عـلـلـهـاـ دونـ أنـ تـوـضـعـ دـائـماـ عـلـىـ مـحـكـ النـقـدـ .

الأمر الرابع : يـسـودـ هـذـهـ الرـوـاـيـاتـ طـابـعـ المـبـالـغـةـ وـالـغـلـوـ ، وـهـذـاـ وـجـبـ مـلـاحـظـةـ هـذـهـ الأـمـرـ عـنـدـ قـرـاءـهـ ، كـاـلاـ يـجـبـ أنـ تـقـبـلـ المـعـجـزـاتـ وـالـكـرـامـاتـ وـالـخـوارـقـ وـالـتـبـؤـاتـ دـوـنـ نـقـدـ أوـ تـخـلـيلـ ، لأنـهـ كـثـيرـاـ مـاـ تـكـوـنـ مـلـوـعـةـ بـالـمـبـالـغـةـ ، بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ أـنـ تـكـوـنـ مـوـضـعـةـ أـوـ مـخـلـقـةـ .

الأمر الخامس : يـجـبـ الـاحـتـيـاطـ دـائـماـ فـيـمـاـ يـتـعـلـقـ بـمـشـاجـرـاتـ الصـحـاحـةـ ، فـهـمـ لـيـسـواـ بـعـصـومـينـ ، فـصـدـورـ الـأـخـطـاءـ أـوـ اـرـتـكـابـهـاـ مـنـ جـانـبـهـمـ لـيـسـ بـالـمـسـتـحـيلـ ، بـلـ هـوـ ضـرـورـةـ مـنـ ضـرـورـاتـ الـبـشـرـ ، وـلـكـنـ لـاـ يـوـجـدـ لـلـهـمـ ، وـخـاصـةـ أـكـبـرـ الصـحـاحـةـ سـوـءـ النـيـةـ أـوـ سـوـادـ الـبـاطـنـ ، هـذـاـ فـمـاـ قـامـواـ بـهـ ، قـامـواـ بـهـ بـكـلـ إـيمـانـ ، فـلـوـ تـذـكـرـنـاـ الـأـهـدـافـ وـالـمـقـاصـدـ فـيـمـاـ يـتـعـلـقـ بـاـخـتـلـافـهـمـ فـإـنـاـ حـيـنـهـ يـجـبـ أـنـ نـفـهـمـ تـعـلـيـقـاتـ الـرـوـاـةـ وـكـاتـبـ الـأـخـبـارـ ، وـلـاـ يـجـبـ أـنـ نـقـبـلـهـاـ طـالـمـاـ لـاـ تـوـجـدـ لـهـ شـوـاهـدـ تـارـيـخـيةـ مـؤـكـدةـ .

الأمر السادس : لا يـجـبـ أـنـ نـقـبـلـ بـعـيـونـ مـغـلـقـةـ مـاـ يـذـكـرـهـ أـصـحـابـ الـأـخـبـارـ أـوـ النـقـلـةـ ، أـوـ بـيـانـاتـ الـمـفـسـرـينـ أـوـ عـلـمـاءـ الـجـرـحـ وـالـتـعـدـيلـ ؛ لأنـهـ عـادـةـ مـاـ يـذـكـرـونـ آرـاءـهـمـ الـذـاتـيـةـ الـمـبـنـيـةـ عـلـىـ مـعـلـومـاتـهـمـ ، وـكـثـيرـاـ مـاـ تـكـوـنـ مـعـلـومـاتـهـمـ عـنـ شـخـصـ مـاـ أـوـ طـبـقـةـ مـاـ أـوـ إـدـارـةـ مـاـ نـاقـصـةـ ، وـهـكـذـاـ يـكـوـنـ تـعـلـيـقـهـمـ بـالـضـرـورـةـ غـيـرـ مـكـتـمـلـ وـغـيـرـ وـاقـعـيـ .

الأمر السابع : يـجـبـ أـنـ نـنـظـرـ إـلـىـ كـتـابـاتـ الـمـسـتـشـرـقـينـ بـالـشـكـ دـائـماـ ، وـيـجـبـ أـنـ نـشـكـ فـيـمـاـ يـكـتـبـونـ حـتـىـ نـتـيـقـنـ بـأـنـفـسـنـاـ مـنـ صـحـتـهـ ، فـمـعـظـمـ الـمـسـتـشـرـقـينـ

لهم موقف متغصب ضد التاريخ الإسلامي والإسلام ، ومعظمهم لم يطالع التاريخ الإسلامي جيدا . كما أنهم لا يعرفون اللغة العربية جيدا . كما أن معرفتهم بالهيئات الإسلامية غير دقيقة . ولهذا فكتاباتهم في معظمها تفتقد إلى التوازن والصواب .

الأمر الثامن : معظم المؤرخين المحدثين إما تأثروا بالرواية القدامى أو تأثروا بكتابات المستشرقين ، ولهذا يجب على القارئ أن يضع في ذهنه عنصر التأثير هذا حتى لا ينخدع بأسلوبهم وشرحهم للأحداث .

الأمر التاسع : لا يجب قبول أية كتابات مهما كانت دون نقد أو تحليل . يجب أن يكون عقلنا واعيا وقلينا مدركا ، فنحن يمكن أن نشاهد جيدا من خلال وجهات نظرنا نحن التضارب والتضاد في بيانات المؤرخين وميولهم الفكرية والعقدية ، وأهدافهم وأغراضهم . وعليها يجب أن نقرأ التاريخ الإسلامي بانتظاره الصحيح .

المراجع

- ١ - ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد . م (١٢٣٣ هـ / ٥٣٦٠ م) .
الكامل في التاريخ - بيروت ١٩٦٥ م .
أسد الغابة - طهران ١٩٠٩ م .
- ٢ - ابن أبي الحديد . م (١٢٥٩ هـ / ٦٥٥ م) .
شرح نهج البلاغة القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٣ - ابن حجر العسقلاني م (١٤٤٨ هـ / ٨٥٢ م) .
الإصابة في تمييز الصحابة - القاهرة ١٩٣٨ م .
تهذيب الأخلاق - حيدر أباد الدكن ١٩١١ م :
لسان الميزان - حيدر أباد الدكن ١٩١١ م .
فتح الباري في شرح البخاري - بولاق ١٨٨٢ م .
- ٤ - ابن حزم ، علي بن أحمد م (١٠٦٤ هـ / ٤٥٦ م) .
جمهرة أنساب العرب - القاهرة ١٩٤٨ م .
جواجم السيرة - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٥ - ابن حنبل ، أحمد بن محمد م (٨٥٥ هـ / ٢٤١ م) .
المسند - القاهرة ١٩٤٩ م .
- ٦ - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد م (١٤٠٦ هـ / ٨٠٤ م) .
كتاب العبر - بيروت ١٩٥٦ م .

- المقدمة - القاهرة - ط مصطفى محمد .
- ٧ - ابن سعد محمد م (١٣٤٥هـ / ١٨٤٥م) .
الطبقات الكبرى بيروت ١٩٥٧ .
- ٨ - ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبام (١٣٠٩هـ / ١٨٩٩م) .
كتاب الفخرى - القاهرة ١٨٩٩ .
- ٩ - ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم دينوري م (١٢٧٦هـ / ١٨٨٩م) .
كتاب المعارف القاهرة ١٩٦٠ .
عيون الأخبار - القاهرة ١٩٢٥م .
- كتاب الإمامة والسياسة - القاهرة ١٩٢٥م . (منسوب) .
- ١٠ - ابن كثير ، إسماعيل بن عمر م (١٣٧٣هـ / ١٧٧٤م) .
البداية والنهاية - القاهرة ١٩٣٢ .
- ١١ - ابن هشام . عبد الملك م (١٢١٨هـ / ١٨٣٣م) .
السيرة النبوية - القاهرة ١٩٢٥م .
- ١٢ - أبو حنيفة الدينوري م (١٢٨٢هـ / ١٨٩٥م) .
كتاب الأخبار الطوال - ليدن ١٨٨٨ .
- ١٣ - أبو داود . سليمان بن الأشعث . م (١٢٧٥هـ / ١٨٨٨م) .
السنن - القاهرة ١٩٢٢ .
- ١٤ - أبو عبيدة قاسم بن سلام م (١٢٤٦هـ / ١٨٣٦م) .
كتاب الأموال - القاهرة ١٩٣٤ .
- ١٥ - أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم م (١٨٢هـ / ١٧٩٨م) .
كتاب الخراج القاهرة ١٩٣٣ .
- ١٦ - أرزق . محمد بن عبد الله م (١٢٤٤هـ / ١٨٥٨م) .

أخبار مكة بيروت ١٩٦٤ .

- ١٧ - البخارى . محمد بن إسماعيل م (١٩٥٦هـ / ١٩٧٠م) .
الجامع الصحيح - القاهرة ١٩٥٥ م .
التاريخ الكبير - حيدر أباد الدكن ١٩٤١ م .
- ١٨ - البغدادي ، محمد بن حبيب م (١٩٤٥هـ / ١٩٥٩م) .
كتاب المخبر حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ م .
كتاب المنمق حيدر أباد - الدكن ١٩٦٤ م .
- ١٩ - البلاذرى ، أحمد بن يحيى م (١٩٣٩هـ / ١٩٩٢م) .
أنساب الأشراف ط ١ القاهرة ١٩٥٩ م ، الرابع - القدس ١٩٣٨ م .
الخامس - القدس ١٩٣٦ م .
فتح البلدان القاهرة ١٩٣٢ م .
- ٢٠ - الطبرى ، محمد بن جرير م (١٩٢٣هـ / ١٩٤١م) .
تاریخ الرسل والملوک القاهرة ١٩٦٠ م .
جامع البيان عند تأویل آی القرآن ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٢١ - الفاكھی - محمد بن إسحاق م (١٩٧٢هـ / ١٩٨٢م) .
المنتقى في أخبار أم القرى - بيروت ١٩٩٤ م .
- ٢٢ - مالك بن أنس م (١٩٥١هـ / ١٩٧٥م) .
الوطأ القاهرة ١٩٥١ م .
المدونة القاهرة ١٩٥٥ م .
- ٢٣ - مسلم بن الحجاج القشيري م (١٩١٥هـ / ١٩٦١م) .
الجامع الصحيح - القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٢٤ - المسعودي . علي بن حسين م (١٩٥٦هـ / ١٩٤٥م) .
مروج الذهب - القاهرة ١٩٢٧ م .

- كتاب التنبيه والأشراف - ليدن ١٨٩٢ م .
- ٢٥ - الواقدي ، محمد بن عمر م (١٤٢٢هـ / ١٩٠٧ م) .
كتاب المغازي - لندن ١٩٦٦ م .
- ٢٦ - يعقوب ، أحمد بن أبي يعقوب م (١٤٩٢هـ / ١٩٠٣ م) .
التاريخ - بيروت ١٩٦٠ م .
كتاب البلدان - ليدن ١٨٦٠ م .
- ٢٧ - يحيى بن آدم م (١٤٢٠هـ / ١٨١٨ م) .
كتاب الخراج - ليدن ١٨٩٦ م .
- ٢٨ - أحمد أمين ، فجر الإسلام - القاهرة ١٩٦٤ م .
ضحي الإسلام - القاهرة ١٩٦٤ م .
- ٢٩ - طه حسين ، على هامش السيرة - القاهرة ١٩٧٤ م .
الشيفخان - القاهرة ١٩٦٠ م .
الفتنة الكبرى - ط دار المعارف .
- ٣٠ - عمر أبو النصر ، خلفاء محمد - بيروت ١٩٣٥ م .
محمد وعصره - بيروت ١٩٤٩ م .
- ٣١ - أبو الأعلى المودودي ، خلافت أورملة آيت دهلي ١٩٦٩ م .
- ٣٢ - خورشيد أحمد فاروق تاريخ إسلام دهلي ١٩٨٢ م .
- ٣٣ - شibli نعمان - سيرة النبي أعظم گرمق ١٩٧٣ م .
- ٣٤ - نقوش . (مجلة) رسول غير إراده فروغ ارنلدو صور (مجلد) ١٩٨٢ م .
- 35 . Andre , Tor , *Mohammad the Man and His Faith* , London 1956 .
- 36 . Arnold , T.W., *The Caliphate* , London 1965 ; *The Preaching of Islam* , London 1935 .

- 37 . Broekelmaun , C., *History of the Islamic Peoples* , London 1952 .
- 38 . Caetani , Leon , *An nabi dé El Islam* , Milan 1905 .
- 39 . *Cambridge History of Islam* , Cambridge 1970 .
- 40 . Dennett , D .C , *Conversion & Poll-Tax in Early Islam* , Cambridge 1950 .
- 41 . Gabrieli , F. *A short History of the Arabs* , London 1965 ; *Muhammad and The Conquest of Islam* .
- 42 . Gibb , H.A.R, *Studies on the Civilization of Islam* , London 1962 .
- 43 . Hitti , P.K., *The History of the Arabs* , New York 1964 ; *Makers of Arab History* , London 1969 .
- 44 . Margoliouth D .S., *Muhammad and the Rise of Islam* , London 1905 .
- 45 . Muir , W., *The Life of Muhammad* , Edinburgh 1923 .
- 46 . Watt , W.M., *Muhammad At Mecca* , Oxford 1953 ; *Muhammad At Medina* , Oxford 1956 .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تمهيد - المؤرخون القدامى ، القرن الأول والثانى المجرى
١٠	المستشرقون
١٤	الاتجاهات الجديدة في كتابة السيرة والتاريخ
١٥	المؤرخون المغرضون والانتهازيون
١٦	المؤرخون المنحازون
١٨	اتجاه خطير
٢٢	العهد النبوى
٢٢	الاسم والنسب
٢٤	المنافسة بين بنى هاشم وبنى أمية
٢٦	حياة الرسول - المرحلة الأولى
٢٩	قصة بُحيرة الراهب
٣٠	رسول الله ﷺ في شبابه
٣٤	البعثة النبوية
٣٩	تعاليم القرآن الكريم
٤٠	تدوين القرآن
٤٣	تطوير الدعوة الإسلامية في العهد المكى
٤٥	معارضة الإسلام
٤٧	تعذيب المسلمين
٥٠	قصة إله

الصفحة	الموضوع
٥٢	المجرة إلى المدينة المنورة
٥٤	المهام الأولى
٥٧	غزوة بدر
٥٩	غزوات النبي
٦٠	العلاقات مع اليهود : الروابط الفكرية
٦٣	تشكيل المجتمع الإسلامي : المؤاخاة
٦٤	الصحيفة النبوية
٦٦	المعارك مع يهود المدينة
٦٩	تشكيل الدولة الإسلامية
٧٠	يهود خير
٧١	الخط السياسي للعلاقات مع غير المسلمين
٧٥	تبليغ الدين ونشر الإسلام
٧٧	السكان المسلمون في العهد المكي
٧٩	نشر الإسلام خارج مكة
٨٠	رسول أو حاكم
٨٣	بناء الدولة الإسلامية
٨٥	تنظيم الحكومة
٨٨	الخلافة الرشيدة
٩٦	فتنة الردة
١٠٢	الفتوحات الإسلامية : الدوافع والأهداف
١٠٩	أهداف الفتوحات
١١٢	نوعية الفتوحات الإسلامية

الصفحة	الموضوع
١١٤	انتخاب الخليفة الثالث
١١٧	التامر على الخلافة الإسلامية
١١٧	عزل وتعيين العمال في عهد عثمان
١٢٦	التصرف في بيت المال
١٢٧	القطائع
١٢٨	الاتهامات الأخرى
١٢٨	أهم ملامح السياسة العثمانية
١٣١	الفتنة الكبرى
١٣٣	السيدة عائشة وحركتها الإصلاحية
١٣٤	سلوك على
١٣٥	احتجاج معاوية
١٣٧	خاتمة المطاف
١٤١	المراجع

رقم الإيداع / ١٩٠٣ / ٨٨

الت رقم الدولي ٧ - ٢٧ - ١٤٣١ - ٩٧٧

هجر

لطباعة و النشر و التوزيع و الإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة

المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل - أرض اللواء

٣٤٥١٧٥٦ - ص ، ب ٦٣ إمبابة

Biblioteca Nazionale



0328129